فريق آن الأوان
سُبُل
لتكن سباقين لنترك الأثر

مجموعة قصصية

سُبُل

لنكن سباقين لترك الأثر

فيروز الأوان

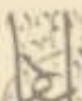

اسم الكتـاب:	سُـبُـل
التصـــنيـف:	مجموعة قصصية
التصحيح من قبل فريق الكيان، تحت إشراف المُدققة:	ضحى الديب
تنسيق داخلي:	تقى محمد
تصميم الغلاف:	منى عبد الله
تحت إشراف وإدارة:	مسؤولي كيان آن الأوان
الـنـاشـــــر:	دار دراكوتوبيا للنشر والتوزيع.
نُشر على موقع:	- منصة ريدا

عن الـــرّواد:

فريقٌ أُسس على بناء رسالة وعي بمختلف الوسائل والمجالات في سبيل تحقيق غايته السامية.

رحلة ثماره بدأت عند النشأة والنظر إلى أسمى الغايات المُرضية لله عزَّ وجلَّ، ورجاؤنا الوحيد هو القبول، لذا نسأله دومًا الثبات والتقدم به.

ربما الرحلة مليئة بالعقبات والمحن، ولكن حتمًا سيسبقها الصبر والحكمة، وكان (سُبُل) هو أول نقطة تحول أمليّ لنا جميعًا.

وكما أن (سُبُل) أول نقطة تحول منمّق بشدة، هو أيضًا ضوء يشير إلينا لنكون سبّاقين لترك الأثر بعد الرحيل، والسلام والعزم لقلوبنا حتى يأتي.

صحيح أن (سُبُل) يعني الطُرق يا أبتِ ويا أُماه، وما أروعه من طريق اختاره الله! لكلّ منا موهبة، ومنحنا الله سبب الكيفية له، وقد انتهزناها بنبتة صائبة وصالحة، لعلنا نُهادي حرفًا أو نظرةً تغيّر أجواء ومسامع أحدهم بمبادئ وشريعة حسنة، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

هكذا نحاول جهادًا كي نفعلها، وأن نبذل ما لدينا من وقت وسعي لأجل أن تظل الأبواب بيننا وبين الله موارية على الأقل وليست مغلقة أو مهجورة، وبالأحرى نريد فتحه بشكل مستدام، وبمشيئة الله وعونه سنمضي نحوه.

أما عنكم، فجزاكم الله خيرًا بكل ما فعلتموه من أجلنا، فدعواتكم بالصلاح والتوفيق هي التي أوصلتنا ذاك الطريق.

هذا كان إهداؤنا ورسالتنا إليكم ولكل فرد عامةً، وختامنا بحق الشكر والفضل لله سبحانه وتعالى، ولكل مَن ساهم وشارك في هذا العمل المُبارك، ثم الشكر والامتنان لمعلمينا الأفاضل، وصحبتنا الطيبة، وكل مَن قدّم لنا ثمرة عطاء عِلمٍ أو عون بكافة أشكاله، فقد قال رسول الله ﷺ: «لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ».

المـقدمـــة:

بِسْـــمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيـــمِ

والصلاة والسلام على أشرف خلق الله ونبي الأمة وشفيعنا يوم الحق، ومجيؤه لنا كان حقًّا، إنه النبي ﷺ.

(سُبُل) أراد أن يمعن ويقدّم لكم أبرز القضايا المهمة إلى مجتمع رمزه الآن صفر بالمئة، لكن هيهات، هذا المحتوى سيظل مستمرًا إلى حين ظهور جيل ينعت ويكون حاضرًا ومتقدمًا.

(سُبُل) اليوم يوصّل رسالته القصصية التي يتخفّى فيها العظماء في حجرات صمّاء ساكنة من التقدّم شبرًا واحدًا، يتخلى عنهم أغلب مجتمعنا اليوم ظنًّا منهم أنه هروب عاديّ، والحقيقة أنه يبني حوائط مليئة بأشواك الوسواس السلبية متراتبةً ومتناسقةً بعضها فوق بعض حتى عمَّ الظلام الدامس عليه، بل ومتنقّلًا رويدًا على من حوله، حيث أصبح الكل متباعدًا عن مخرجه الصحيح، وبقي محاصرًا معه في قاعٍ أبديّ، ثم يقول بصياح: أين النور؟ وأين الحرية؟

نقول لهم: عودوا إلى مَن ليس لنا سواه، هو الذي قال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [سورة القيامة: ٣٦].
التفسير المختصر: «أيظنّ الإنسان أن الله تاركه مُهْمَلًا دون أن يكلفه بشرع؟»

ليس مهملًا ولا دون شرع، صحيح؟ إذًا فلنتّبع تلك الآية بحقّ فعليّ؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٨].

حينها سنُنَجى من الوسواس الخاطئة والطرق المنهكة، ونصعد إلى قمة النور بتمسّكنا بسبل الله ﷻ المستقيمة، ونكمل سيرنا بسبل صحيحة من أجل الحفاظ على صبغة سلامة قلوبنا إلى لحظة اللقاء الموعود، لعلنا نترك بصمةً إيجابيةً دنيويّةً وراءنا، ونحصد ثمارها في دار القرار.

بصمة قلم

قصة

نُقْطَةُ انطِلَاقٍ

الكاتبة

هالة محمود

إسمين

- الرسامة: فرحة محمد.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

سورة البقرة 2

نُقْطَةُ انْطِلَاقٍ

هالة محمود

تصحيح١: فاطمة عادل

في منزلٍ يحتوي على هالة من البساطة والدفء والمحبة، في ظلام الليل الكاحل وهدوئه التام وهوائه الطلق الذي تقشعر له الأبدان، تقف تلك الفتاة تحت ضوء القمر الساطع الذي يعكس نوره عليها، فهي كالقمر الوضّاء، وجهها يشع نورًا وجمالًا وهدوءًا وراحةً، من يرها يُقسم أنها والقمر شيئًا واحدًا من شدة جمالها. تقف وتتأمل في السماء السوداء الذي يتوسطها القمر وحوله بعض النجوم التي تُزين السماء بشكلٍ رائع، فحدّثت الفتاة نفسها، وقالت: سبحان من أبدع في خلق كونه.

دخلت إلى غرفتها واتجهت إلى مكتبها الموجود في أحد زوايا الغرفة، وقامت بفتح دفتر التحضير الخاص بها، ثم قامت بعمل اختبار تجريبي لتعرف به مستوى الفتيات في مادتها، حتى تضع خطة سلِسة ومنظمة ومُحكمة، لشرح منهجها وإيصاله لطُلابها بأسهل الطرق الممكنة.

أنهت عمل الاختبار ثم أخذت هاتفها وفتحت أحد برامج السوشيال ميديا، وأخذت تبحث عن المجموعة الخاصة بالصف الأول الثانوي، ثم قامت بكتابة الآتي: السلام عليكنّ، كيف حالكنّ يا فتيات؟

وانتظرت إلى أن جاءتها بعض الردود، ثم قامت بكتابة رسالة محتواها: أُذكركنّ بأهمية الحضور غدًا لوجود اختبار خاص بالمادة الفرنسية، ولا داعي للقلق، فهو يسير ولا يوجد به عائق، كما أذكركم بالرحلة المدرسية إلى الجيزة لزيارة الأهرامات وغيرها من الأماكن المشهورة فيها، لنكتشف ونتعلم تراثنا القديم، وكما أنه يوم ترفيهي للهو واللعب، فقد تم حجز حديقة هناك خاصة بكم وسيُخلَّى المكان من الرجال في الوقت المحدد لنا من الساعة الثالثة إلى الخامسة مساءً، علمًا بأن وقت التجمع للانطلاق من هنا إلى الجيزة هو الساعة السادسة صباحًا. انتهت رسالتها ثم قامت بقفل هاتفها، واتجهت إلى سجادة الصلاة التي كانت خير صديقة لها منذ عشر سنوات حين أرشدها الله إلى طريق الهداية، فتلك سجادة الصلاة الخاصة بوالدها -رحمه الله-، ومُنذ ذلك الوقت قامت الفتاة بفرشها في مكان صغير في غرفتها وبجانبها مصحفها الذي أعطاه لها أخيها الأكبر، فهذا الركن هو الأقرب لقلب تلك الفتاة، فهنا عرفت ربها وهنا عبدته وهنا جاهدت شيطانها ونفسها الأمّارة بالسوء، وهنا قامت ليلها وهنا صلت أكثر فروضها، فهذا المكان يذكّرها بخطوات ثباتها على طريق الحق المستقيم. وقفت الفتاة على مُصلّاها تصلي فرضها السادس الذي ألزمت نفسها به، فهو راحتها، فهنا تلجأ إلى المولى عزّ وجلّ، فكيف لها بتركه؟ وفي قيام الليل فضل عظيم وثواب كبير، يكفي أنها تشعر بذاتها وهي بين يدي ربها فتحدثه بكل راحة، فهي اعتادت أن تُصلي حتى يحبها الله ويرضى عنها، وكما نعرف أن قيام الليل له فضل كبير؛ حيث فيه تُرفع الدرجات، وتُزاد الحسنات، ويُكفّر عن السيئات.

أدت الفتاة صلاتها بخشوع وطمأنينة وراحة شديدة، ثم أخذت تدعوا الله في صمتٍ حتى ارتفع صوت الأذان يبثُّ الطمأنينة في القلب: «حيّ على الصلاة.. حيّ على الصلاة.. حيّ على الفلاح.. حيّ على الفلاح.. الصلاة

خير من النوم». رددت الأذان خلف المؤذن، ولما انتهت قامت تؤدي فرضها، وظلت تبكي وتتضرع وتتوسل إلى المولى عزّ وجلّ أن يغفر لها ذنوبها وأن يثبت قلبها على طريق الحق.

أنهت فريضتها ثم شردت بذهنها إلى عشر سنواتٍ مضت حينما كانت بعمر السادسة عشر، إنها حور لكن بنسخة أخرى لم تكن عليه الآن، كانت فتاة طائشة تحب الحياة، تعيشها ولا تلقي لها بالًا، كانت ترافق هذا وتتسكع مع هذا، ولِمَ لا وهي فتاة جميلة ويتمنى الشباب أن تنظر إليهم نظرة رضا! كانت تفعل كل شيء ولا تفكر فيه إن كان حرامًا أم حلالًا، كانت تحب الموسيقى بشدة، فهي أقرب شيء إلى قلبها، وكانت تسمعها في كل أوقاتها، ورَغم هذا فإنها كانت متفوّقة في دراستها، فكانت الدراسة أهم شيء لها، فقد تُقصر في أي شيء إلا دراستها، فكان حلمها الأول أن تكون طبيبة القلب مثل الطبيب مجدي يعقوب، فكانت تسير بتفاخر وهي في المرحلة الثانوية وتتحدث مع الجميع بتعالٍ كأنها طبيبة رسميًّا، فتفوّقها أكد لها أنها ستصبح طبيبة بالفعل، ولكنها صُدمت بمجموعها، فقد حصلت على تسعين بالمئة من المجموع، وهذا المجموع لا يدخلها الطب ولا الهندسة، فكل ما فعلته أنها وهبت قوة حفظها وذكاءها لنفسها ونسَتْ أن هذا فضل مَنّ اللهُ به عليها، فلم تشكره على ذلك، بل أخذها الكبر والغرور، فكانت هذه نتيجتها وكأنه درسٌ من الله ليُعلمها أن الفضل له وليس لها. ظلت فترة حبيسة غرفتها إلى أن حدث شيء غيَّر حالها من فتاة عاصية إلى فتاة طائعة، وحينها تنبّهت حور وقررت أن ترسم أحلامًا وأهدافًا جديدة، فدخلت كلية اللغات وتخصصت في اللغة الفرنسية، وبتوفيق من الله تخرجت في كلية الترجمة بمجموع امتياز مع مرتبة الشرف، كما أنها في السنة الأولى من التخرج أخذت دورات عديدة مكّنتها أكثر من اللغة، كما أن هوايتها لقراءة الكتب ثقّفت ذهنها أكثر، فقد كانت تقرأ في مجالات عديدة كالمنطق والفلسفة وعلم النفس وكتب الفقه والسيرة، وفي أحد الأيام وجدت إعلانًا بالمُصادفة عن حاجة أحد الشركات لمترجمة للغة الفرنسية لترجمة بعض الرسائل القادمة من الخارج، فقامت بالتقديم في هذه الوظيفة وظلت بها حتى تم تعيينها معلّمة في إحدى المدارس بجانب عملها الأول. فاقت من شرودها وقامت لتصلي صلاة الضحى، ثم أنهت ما كانت تفعله وأخذت ترتب ما ستأخذه معها للرحلة في حقيبة ظهرها.

حور فتاة في منتصف العشرينات من عمرها، متوسطة الطول، ذات وجه صغير، بشرتها بيضاء، عيناها بلون صفاء البحر، كل من يراها يقع في حبّها، ابتسامتها لا تفارق وجهها، تُخفي جمالها خلف نقابها، تعمل مدرسةً للغة الفرنسية في إحدى المدارس، كما أنها درست الكثير من العلم الشرعيّ.

في الساعة السادسة صباحًا اجتمعت الفتيات في ساحة البلدة، وكانت حور مسئولة عنهم، اجتمعت الفتيات داخل الحافلة ثم انطلق بهنّ إلى وجهته المعروفة ألا وهي الجيزة، ثم حدّثتهنّ حور قائلةً: أُذكركنّ وأذكر نفسي بقول دعاء السفر، ألا وهو: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون»، فردّدت الفتيات خلفها.

كان الطريق طويل، فقد كان الوقت يمرّ بين لعبهنّ معًا وغنائهنّ حتى وصلت الحافلة بهنّ إلى القاهرة، وقفت حور تُملي بعض التعليمات التي سيتّبعنها على مدار هذا اليوم، وقالت: أول ما سنفعله أننا سنقف لاستراحة قصيرة، فكلٌ منكنّ تفعل ما تشاء، وبعد مدة من الاستراحة وزّعت حور عليهنَّ اختبارًا صغيرًا مدته لا تتجاوز خمس عشرة دقيقة، وبعد مرور بعض من الوقت قمنَ بتسليم الورق إليها وعلى وجههنّ الحماس لما هنّ مقدمات على زيارته.

حور: أرى أنكنّ متحمسات جدًا، فقد أنهيتنّ الاختبار في تسع دقائق فقط!

ابتسمنَ وهنَّ يصرخنَ بالإيجاب من شدة حماسهنّ، فبادلتهنّ حور الابتسام، وقالت: هيا بنا ننطلق، ولكن انتبهن! إياكنّ أن تذهبنَ بعيدًا أو تصنعنَ المشاكل، وسنجتمع هنا عند أذان الظهر بإذن الله.

ذهبت كل واحدة إلى وجهتها يلهونَ بمرح، منهنّ من تلتقط صورًا للأخرى بجوار الهرم الأكبر، وأخرى تحتضن أبا الهول وتنظر له بهيام وكأنه يبادلها النظرة، والأخريات يجرينَ هنا وهناك في أجواء المرح، وهناك كانت تجلس حور تصحح لهنّ الاختبار ومن وقت إلى آخر تُلقي عليهنّ نظرات حانية. مر الوقت وتبقّى حتى أذان الظهر خمس دقائق، فقامت حور لجمعهنّ لكي تؤدي كلٌ منهنّ فريضتها، فلم تجد منهنّ إلا القليل، فسألتهنّ عن البقية، فقلنَ: إنهنّ يلهونَ في الجوار. فذهبنَ جميعًا إليهنّ ووجدنهنّ يركضنَ وصوت صُراخهنَّ يكاد يحجب صوت الأذان.

وفي لحظة وقعت واحدة منهنّ بعد أن تعرقلت بحجارة، وسقطت عليها صديقتها وأخذنَ يضحكنَ بصوتٍ عالٍ، وكان كل هذا على مرأى ومسمع من الجميع، فقالت حور بصوت عالٍ: انهضنَ حالًا.

انتفضت الفتيات من صوتها وأخذت كلٌ منهنّ بيد الأخرى، وقمنَ وهنّ ينظرنَ بخجلٍ إلى الأرض.

فقالت حور بصوت قوي: جميعكنّ ورائي إلى المسجد.

سارت بهنّ حور إلى المسجد، وكانت طوال الطريق تستغفر سرًّا حتى ارتفع صوت يعلن بداية الصلاة. وقفت هي والفتيات يصلينَ وراء الإمام، وحين انتهت طلبت من الفتيات جميعهنّ أن يجلسنَ حولها في حلقة حتى تحفّهم الملائكة، ثم قالت بهدوء: ألا تعلمنَ أنكنّ بلغتُنَ سن البلوغ؟ هذا يعني أنكنّ مُكلفات، ويجري القلم ويسجل كل ما يصدر منكنّ من أقوال وأفعال، إن هذا العبث الذي كثيرًا ما نراه في الشارع من أفعال قد تكون للبعض عادية ولا حرج فيها، أما من جهة الشرع فإن البنت من يوم أن بلغت تُكتب عليها كل صغيرة وكبيرة، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، ومن يَدّعي بجهل أنكنّ صغيرات في العُرف، فإنهم لا يفقهون شيئًا، لأن نظرتهم إليكنّ سيحاسبون عليها، كما أنه لا يصح أن ينظر إليكنّ الرجال وأنتنّ تلهونَ بهذا الوضع، أنا لا أنهاكنّ عن اللهو واللعب والمرح، لأن هذا الدين يُسر وليس عسر، فقد خرجت السيدة عائشة رضي الله عنها مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فقال للناس: «تقدّموا»، فتقدموا، ثم قال لها: «تعالي حتى أسابقك»، فتسابقا معًا حتى سبقته السيدة عائشة رضي الله عنها، وقد فعل النبي ﷺ ذلك لإدخال السرور على

قلبها، وهذا يدل على أن الرفاهية واللعب ليسا محرمَين، ولكن ما عليكنّ فعله هو اختيار الوقت المناسب والمكان المناسب دون وجود شخص ينظر إليكنّ، وهذه التصرفات من الأخلاق الحسنة.

اعتذرت الفتيات عما بدر منهنّ، فعفت حور عنهنّ، وبعدها خرجنَ جميعًا من المسجد إلى اللهو واللعب، ولكن هذه المرة كنّ أكثر حذرًا من ذي قبل، وبعد فترة اجتمعنَ ليلعبنَ في دائرة وهنّ يضحكنَ ويتسامرنَ، فإذا بفتاة تقدم عليهنّ.

الفتاة: هل لي بطلب المساعدة؟

هدى: نعم يا جميلة.

الفتاة: أعتذر عن الإزعاج، ولكن أريد واحدة منكنّ أن تلتقط صورة لي مع حبيبي، شهقت الفتيات بدهشة، ولكن بضحكات خافتة، فقامت هدى وأخذت منها الهاتف وذهبت مع هذه الفتاة هي والبقية حيث يقف هذا المُلقب بحبيبها، والتقطت لهما بعض الصور وبقية الفتيات خلفها ينظرنَ بهيام ويتهامسنَ بحظ هذه الفتاة وأن لديها حبيب.

كانت حور تجلس على مقربة من الدائرة التي كانت تجلس فيها الفتيات، فنظرت ولم تجدهنّ، فبحثت عنهنّ فوجدتهنّ مجتمعات في مكان بعيد، فاقتربت منهنّ وما كادت أن تنادي عليهنّ حتى سمعت صوت فتاة تقول للأخرى: ليتني أحصل على حبيب مثل هذا.

ذُهلت حور بشدة، فعن أي حبيب يتحدثنَ؟! فنادت عليهنّ ليقتربنَ منها فودّعنَ الفتاة والشاب جوارها، وأخذتهنّ حور إلى مكانهنّ الذي تركنَه منذ دقائق وجلست في منتصف الدائرة، وقالت وعلى وجهها ابتسامة صغيرة: من هذه الفتاة؟ أتعرفنَها؟

أجابت إحدى الفتيات بحماس: لا، ولكنها جاءت وطلبت منا أن نلتقط لها صورة مع حبيبها.

حور: وما رأيكنّ في هذا التصرف؟

قالت الفتاة بخجل: هل وجود حبيب تصرف خطأ يا معلمتي؟

ردت عليها حور وقالت: الحب ليس بشيء خطأ، بل هو أكثر شيء صحيح يُفعل باسمه أخطاء كثيرة، ففتيات اليوم يعشنَ مع الشباب علاقات غير شرعية تحت مُسمى الحب، ويطلقون عليه لفظ (الكِراش) أو (الإكس).

دعنني أخبركنّ شيئًا، هذه المسميات ما هي إلا علاقات ضئيلة اختُرعت حتى نُحلل بها تحريم هذا الارتباط، فلا توجد هذه المسميات في شرعنا، فالعلاقات المباحة هي الخطبة والنكاح، والخطبة ما هي إلا طلب الرجل المرأة للزواج، فليس للخطيب أي سُلطة على خطيبته، بل هناك ضوابط تضبط هذه الخطبة، فلا تجعلنَ الله أهون الناظرين إليكنّ، ولا تقللنَ من شأنكنّ، فكونوا أنتنّ الفتيات العفيفات، فلا تسمحنَ لأيٍ كان أن يقلّل من شأنكنّ وأن يجعلكنّ تسلية وأضحوكة له، فأنتنّ أغلى من هذا بكثير، هذا من منظور الدين. أما إن نظرنا من ناحية العقل، فيقينًا ما يحدث هو خطأ، فكيف لشاب في عمركنّ أن يكون قادرًا على الحب ومسئولياته من زواج وعمل؟ فهذه سن مراهقة، فلا ترهقوا قلوبكم بالحب في هذه السن واحفظوا هذا الحب لأزواجكنّ في المستقبل، فهم الأولى به منهم، لا تستنزفنَ طاقة الحب في شيء حرام، بل احفظوه لمن يُحافظ عليكم ويأتي ليدق الباب طالبًا الحلال.

جودي: ولكن يا معلمتي، هناك شباب صادقون في مشاعرهم وينتظرون إنهاء مسيرة التعليم والحصول على عمل حتى يكون قادرًا على الزواج بعدها، ودليلُ ذلك أن بعض الأمهات يكنّ على علم بهذا الحب حتى يحافظنَ عليه.

حور: أنا لا أقلل من مشاعر أحد، ولا أقول إن جميعهم كاذبون، بل هناك نماذج من شباب يحبون بصدق وفي النهاية يوفون بوعدهم، ولكن ما أتحدث عنه هو حديثهم دون وجود عقد شرعي أو إشهار بالخطبة وإن كان بعلم أمهاتهنّ، لأن معرفة الأم لا ينفي تحريم هذا الشيء، قال تعالى: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾، الآية تأمر الرجال بنكاح المرأة بإذن أهلها وبإعطائها مهرها على ما يرضوا به عن طيب نفس منهم، والمرأة تكون عفيفة عن الحرام كالزنى وغيره، ولا متخذة أخلاء، أي صديق لها تحدّثه، فقد قال ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان».

معنى الحديث أن الشيطان يوقع في نفسيهما حب بعضهما، ويحثّهما على التحدث بكلمات العشق والغزل، وهذا حرام سواء أكان في مكان يجمعهما معًا أم في محادثة بينهما ولا يوجد رقيب عليهم، فالتحريم ليس في الحب، وإنما فيما ينتج عن الحب من كلام وأفعال لا تصح بينهما إلا بوجود عقد النكاح.

أنهت حور هذا الموضوع والفتيات في انتباه شديد، فقالت إحدى الفتيات: تحدثي معنا؛ نريد المزيد.

ضحكت حور وقالت: ولكن أنتنّ هنا للتنزه يا جميلاتي، أخشى أن يصيبكنّ الملل.

نفى الجميع كلامها وطالبنَها بمواصلة الحديث، ولكن استوقفهنّ سؤال إحدى الفتيات على استحياء: معلمتي، هل هذا يعني أن هذه الفتاة قلبها ليس سليمًا؟

حور: الله يعلم ما في القلوب، ولكن لا ريب أن ما تفعله ران على قلبها.

قالت حبيبة بسخط: وأيضًا هي لا ترتدي حجابًا يا معلمتي، يبدو أنها غير ملتزمة.

حور: لا يصح هذا يا حبيبة، لا تغتابي أحدًا، عسى الله أن يتوب عليها.

ردت إحدى الفتيات على حبيبة قائلةً: الحجاب ليس كل شيء، أنا أصلًا لا أرتديه حبًا، بل لأنه زيّ رسمي للمدرسة، فلا تجعليه مقياسًا للالتزام.

فقالت واحدة بصوت حازم: لا، قرأت أن الحجاب فرض كما الصلاة تمامًا، أليس صحيح، معلمتي؟

فوجهت حور كلامها إلى الجميع، وقالت: أعرنَني انتباهكنّ، فالحديث عن الحجاب يطول، وسأحاول أن أسرد كل ما يُجريه الله على لساني، الحجاب فرض على كل مسلمة بالغة، قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ﴾، وأشار الشيخ الشعراوي إلى أن معنى الخمار هو غطاء الرأس وأن على النساء أن يغطين رؤوسهن ويضربن بالخمار على جيوبهن ليغطي منطقة الصدر، مفسرًا كلمة ﴿يضربن﴾ بأنها تعنى الوضع بشدة وبإحكام حتى تغطى منطقة الجيب وهى الصدر، ولا تسمح بأن تنكشف، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، والجلباب هو اللباس الواسع الفضفاض الذي لا يصف ما تحته ولا يشف ولا يحدد معالم الجسد، ولا يكون الجلباب معطّرًا لقوله ﷺ: «أيما امرأة استعطرت فمرت على قومٍ ليجدوا من ريحها فهي زانية»، فالعطر الذي يفوح من ملابسكنّ حرام، لأن المولى عزّ وجلّ شبّه المرأة المتعطرة بالمرأة الزانية، لأن العطر يجذب قلب الرجل.

يجب ألا يشبه الجلباب لباس الرجال، فقد لعن رسول الله ﷺ المُتشبّهين مِن الرّجال بالنّساء، والمُتشبّهات مِن النّساء بالرّجال، كالبنطال فهو لباس الرجال، فينبغي أن نتذكر دومًا أننا سنقابل الله وحدنا، وأنه لن ينفعنا أحد، فكل منا سيحاسب وحده، وهذه صحيفتنا نملؤها بما نشاء، قال تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾، وأيضًا الحجاب واللّباس الفضفاض خطوة نتقرب بها من الله عزّ وجلّ، قال ﷺ عن رب العزة: «وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»، فإذا فعلنا ما أمرنا به الله، هذا يعني أننا نتقرب من الله عزّ وجلّ، فدعكنّ من آراء الآخرين التي لن تنفعكم، بل ستلقي بكم إلى الضرر، فلا أحد سيُحاسَب مكانكم.

هدى: قرأت مرةً أنني قد أكون غير محجبة رغم أن قلبي أبيض، هل هذا صحيح؟

حور: لا يوجد شيء اسمه قلب أبيض أو قلب أسود في ديننا، القلوب أنواع، منها القلب السليم، وهو القلب المخلص لله والخالي من الكفر والشرك والنفاق، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، والقلب المطمئن، وهو القلب الذي يسكنه توحيد الله، فهو مطمئن بطاعة الله وكثرة ذكره، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، والقلب المُهتدى، وهو الراضي بقضاء الله ومستسلم لأمره: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ والقلب التقيّ، وهو الذي يعظم شعائر الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، والقلب المريض، وهو الذي أصابه مرض الشرك أو النفاق، قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾، والقلب اللاهي، وهو الغافل عن ذكر الله ومشغول بالدنيا وما فيها من ملذات وشهوات، قال تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾، والقلب القاسي، وهو الذي لا يلين للإيمان ولا يتأثر من زجر ووعيد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾، والقلب الغليظ، وهو الذي نُزعت منه الرأفة والرحمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، وهناك قلوب أخرى كثيرة، ولكني اختصرتها حتى لا أكثر عليكنّ، فإياكنّ أن تكون قلوبكنّ من القلوب المريضة، أو اللاهية، أو القاسية، أو الغافلة.

قاطعها صوت تكبيرات الأذان، فرددنَ خلف الإمام ثم استعددنَ لأداء الصلاة وذهبنَ إلى المسجد القريب، وبعد أن انتهينَ من الصلاة ذهبت كلّ منهنّ إلى وجهتها، فجمعتهنّ حور وهي تقول: سأصطحبكنَ لأتكلم معكنّ عن بعض الأماكن هنا.

هلّلنَ بحبور وأخذت حور تشرح لهنّ: الأهرامات المصرية إحدى عجائب الدنيا السبع، بناها المصريون القدماء بين سنة ٢٦٣٠ و١٥٣٠ قبل الميلاد، ولا تعد الأهرامات فقط هدف كل زائر لمصر، فهي أيضًا مصدر إلهام للفن والحياة الثقافية في بلاد النيل.

وما أن انتهينَ حتى تجمعنَ في حلقة كما كنّ يجلسنَ قبل الصلاة، يتنهدنَ بتعب مع ضحكات مرحة إلى أن جاءت الفتاة التي طلبت منهنّ أن يصورنَها منذ قليل، وتُدعى سِدرة.

سِدرة: يا فتيات، أيمكنني الجلوس معكنّ؟

نظرنَ جميعًا إلى حور، فابتسمت لهنّ وردت على الفتاة بحبور: طبعًا يمكنك، أنرتِنا.

جلست سِدرة ثم تنحنحت موجهةً كلامها إلى حور: أيمكنني أن أطرح عليكِ سؤالًا؟

حور: على الرحب جميلتي، كلّي آذان مصغية.

سِدرة: هل أنا شخصية سيئة إلى تلك الدرجة؟

نظرت إليها حور مستفهمةً، وقالت: من قال هذا؟ وماذا تقصدين؟

سِدرة: كنت قادمة كي أشكر الفتيات على مساعدتي، وسمعتكنّ تتكلمنَ عن أشياء عدة لأول مرة أسمعها عن رفقتي هذا الشاب. أعتذر، ما كنت أتعمد التنصّت، صدقًا.

حور: لا عليكِ يا حبيبتي، وبما أنكِ سمعتِ ما قلتُ، فما سؤالك؟

سِدرة: تشاجرت معه وتركني وذهب، ومنذ أن سمعتك وأنا أشعر أني شخص سيء جدًا، فكيف لي أن أصبح مثلهنّ؟

قالت هذا وهي تشير بيدها إلى الفتيات المتنبهات حولها.

قالت حور: كل ما عليكِ فعله هو التوبة.

ردّت سِدرة بتيه: التوبة؟ أنا أضعف بكثير من أن أتوب وأتغير، أنا أعيش في ظلام.

حور: ولِمَ لا تخترقين هذا الظلام، وتصنعين لذاتك نورًا من جديد، وتأخذين بنفسكِ إلى نور الإيمان؟ فالمؤمن لا يعرف الضعف ولا الهزيمة، فقد قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

سِدرة: ولكني ضعيفة، أنا أضعف الضعفاء، فأنا مخلوقة من ضلع أعوج، أليس صحيحًا؟

حور: صحيح، ولكن انتبهي أن تخلطي الأمور ببعضها، إن الله عزّ وجلّ لمْ يساوِ بين الرجل والمرأة في كثير من الأحيان، فقد جعل القوامة للرجل، لأن قوة العقل عنده ترجح على قوة المرأة، وميّز المرأة على الرجل بالعاطفة، فالاثنان خلقا ليكملا بعضهما بعضًا، فلكل واحد منهما دوره، ولا تنسِ أن لا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح.

سِدرة: لا تكلّفي نفسك عبء الحديث معي، فإنّ كل هذا لن يُجدي نفعًا، أنا فعلت أشياء لا تُغفر.

حور: كنت أحسبُكِ أكثر فطنة وذكاء، من أنتِ لتحددي ميزانًا لرحمة الله؟ فخالق هذه العقول يعلم ما فعلتِ، وخالق هؤلاء البشر أعلم بكِ منكِ، لا تنسِ أن الله غفر لقاتل المئة نفس لأنه تاب وأناب بقلبه لما فعله بترك أرضه التي كانت أرض سوء. انظري حولك، أنتِ الآن في حلقة تتحدث عن الله، فيها أشخاص نحسبهم من الصالحين ولا نزكّي على الله أحدًا، فاحمدي الله واستغلّي هذه النعمة في العودة إليه.

سِدرة: أيقبلني بعلّاتي؟

حور: نعم، يقبلك.

سِدرة: ماذا عن ما فعلته وما سلف من ذنوب وأخطاء؟

حور: تُمحيهم توبتك.

سِدرة: يمكن أن يقبل ويمكن أن يغفر، ولكن لا يمكن يومًا أن أدلّ أحدًا عليه وأنا أول من فقد الطريق، لا يمكن لعاصٍ أن يصنع جيلًا صالحًا كما تفعلين معنا الآن.

حور: وما أدراكِ؟ ماذا إذا قلت لكِ إن مَن أمامك هي أول المقصرين؟

قالت هدى هذه المرة: لا، مستحيل، أنتِ السابقة والمقبلة على الله فينا، أنتِ من تهدينا إليه، غفر الله لكِ لا تقولي هذا.

حور: اصغِ إليّ جيدًا يا سِدرة.

ثم التفتت إلى بقية الفتيات، وقالت: أنتنّ لا تعرفنَ من أنا، صحيح. أنا في نظركنّ المعلمة حور الملاك التي لا تخطأ أبدًا، أما أنا فأعلم أني حور التي لو قُبضت روحها منذ أعوام قليلة على ما كانت عليه، لكانت أشقى من يُعذبه الله بذنوبه.

تأمّلت وجوههنّ الصامتة التي تظهر عليها الدهشة، ثم أكملت بعد أن تنفست نفسًا ممدودًا: كنت فتاة صاخبة، مُدللة، عاصية في عمركم تقريبًا، أفعل ما أشاء ولا أعبأ بأحد، لا حدود تُلزمني، أشتري الملابس الضيقة وأمي لا يُرضيها حالي، كانت تنصحني ولا استمع إليها، أسمع الموسيقى وكل من يُنكر عليّ فعلي لا أسمع له، أشاهد التلفاز وما به من منكرات، وما حدث أني رويدًا رويدًا أصبحت أتطبّع بما أسمع وأشاهد، رفيقاتي لم يكففنَ عن فعل كل ما لذّ وطاب من منكرات وأنا كنت أفعل مثلهنّ ولم أكترث لشيء إلى اليوم الذي شاهدت

فيه مقطع فيديو قصير لا يتعدى الدقائق عن زلزال حدث في إحدى البلاد، وطفل صغير يقف أمام إعلامي يسأله: كم شخصًا فقدته من عائلتك؟ فأجابه الطفل وهو على الدرّاجة يقول بكلّ ثبات: جميعهم يا عماه.

فجاء الإعلامي ليواسيه، فقال له الطفل: لستُ حزينًا عليهم، فهم سبقوني إلى الجنة، وهذه إرادة رب العالمين، وقد كتب لهم الموت وهم الفائزون بالشهادة، وأنا هنا الخاسر الوحيد.

سكتت برهة تأخذ نفسًا من شدة بكائها، ثم أكملت: إنه طفل لم يتعدَ العاشرة من عمره، لمس كلامه قلبي وعلّمني ما لم أتعلمه في حياتي، فكيف له بهذا اليقين؟! وأين نحن من هؤلاء الأطفال؟! فأنا إذا جُرحت أشعر بالضّجر، وإن أُصيبت أمي -رحمها الله- بوعكة صحية أشعر أن العالم يضيق عليّ، وأن أماني المتمثل في أمي مهدد بالرحيل، كيف لهذا الصغير أن يحتمل هذا كله؟! من أين أتى بكل هذا الصبر؟!

ومن هنا كانت بداية حور التي أمامكم، لقد تغيّر حالي كثيرًا، وقررت البحث أيضًا عن سرّ صبر أهل سوريا رغم كل ما يحدث معهم من أذى وقتل وتدمير، وكان الجواب صادمًا وهو الآتي: (أراكم تتعجبون من زلزلة الأرض، وموت الأقران، وصبر الأحباب، وجلد الأطفال، لكن تفاديتم أن هذه الأرض لله! يفعل بنا ما يشاء، فالأرض أرضه، والخلق خلقه، وهو أحن وأرحم بنا من أنفسنا، فلا تتعجبوا، فهو الحكيم العليم، يفعل لحكمة وبحكمة، فكل ما يحدث ما هو إلا رحمة، ولا تتعجبوا لصفة الرحمة والحنو هنا، فموتهم وزلزلة الأرض بهم رحمة لا يعلمها إلا الله، ففي قلب الحنَّان رحمات، والله لا يفعل شيئًا عبثًا).

وأما عن صبر الأحباب، ألم تقرأوا قول الله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، فالبشرى لهم الجنة، وهي جزاء الصبر، وبشرنا النبي ﷺ في السنة النبوية أن صاحب الهدم -أي مَن وقع عليه الهدم- يكون بمنزلة الشهيد، ومن نعيم إلى نعيم، أتراهم يجزعون وهم يعلمون أن ذويهم في الجنة؟

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ القَيْنِ، وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ -وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ-، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى»، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ».

في النهاية لا تستكثر على قوم تربّوا بالقرآن وعلى أيدي شيوخ على الصبر وأجر الشهادة أن يشعروك أنك ترى العجب، فما هم عليه هو ما يجب علينا نحن جميعًا أن نكون عليه، وهذه هي البداية، أصبحت ملابسي أوسع، ولبست الخمار، وقطعت علاقتي بكل من يحيطون بي من أصدقاء السوء، وأصبحت قاعدتي أن مَن تُقرّبني إلى الجنة أظلّ معها على وصال، ومن تقربني إلى النار ولو بمثقال ذرة، لا حاجة لي بصحبتها، وفي هذه المدة تعلمت الكثير عن أمور الدين.

مر عام وتوفيت أمي ولم يبقَ لي أحد إلا الله وها هو معي في كل مَرة ومُرة، فالتوبة جميلة، والله عزّ وجلّ يحب التّوابين، لا تستعظموا شيئًا على الله، هو بيده قلبك وبيده توبتك، فأكثرنَ من قول: «اللهم يا مُقلِّب القلوب

ثبت قلوبنا على دينك»، وتالله إذا أقسم لي أحد أني سأكون هنا وأقول ما أقول يومًا، لم أصدق له حرفًا، فلا تنتظرنّ أن يُخلق لكم أجنحة وتصبحنَ ملائكة تمشي على الأرض من التقوى، إنما خُلقنا لنخطئ ونصيب ونذنب ونتوب، فأنا أدعو الله أن أكون من هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فلا تملّوا التوبة، إن الله لا يملّ حتى تملّوا، ولا تملّوا الرجوع كما جاء في الحديث عن علي رضي الله عنه قال: «خياركم كل مفتن تواب [يعني كلما فُتِن بالدنيا تاب] قيل: فإذا عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: حتى متى؟ قال: حتى يكون الشيطان هو المحسور»، فلا تبرحنَ باب التوبة مغلقًا حتى تبلغنَ الفردوس الأعلى من الجنة، ومن هنا سأستئمنكنّ، إن لم تجدنَني بينكنّ في الجنة، سلوا الله عني وقلنَ: كانت تحبك، وتعلّمنا حبك وكل عمل يقربنا إليك.

حور مُنهيةً الجلسة: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

أنهت حديثها وشكرتها سِدرة كثيرًا، ثم احتضنتها حور، وبعدها ذهبت في طريقها بينما حور أخذت الفتيات إلى النادي التي قد سبق وحجزته لهنّ حتى يلعبنَ فيه براحة، وعندما وصلنَ هناك أخذنَ يجرينَ وراء بعضهنّ ولعبت معهنّ حور، وهذا ما أدهش الفتيات وفرحنَ بشدة، حتى صارت الساعة الخامسة وجمّعتهنّ حور في الحافلة مرة أخرى، وانطلق بهنّ إلى حيث جئنَ.

بصمة قلم

قصة

غَيَابَةُ ظَلَامْ

الكاتبة

لوجينا صلاح

حبيبة محمد

قال تعالى: أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها

سورة محمد ٢٤

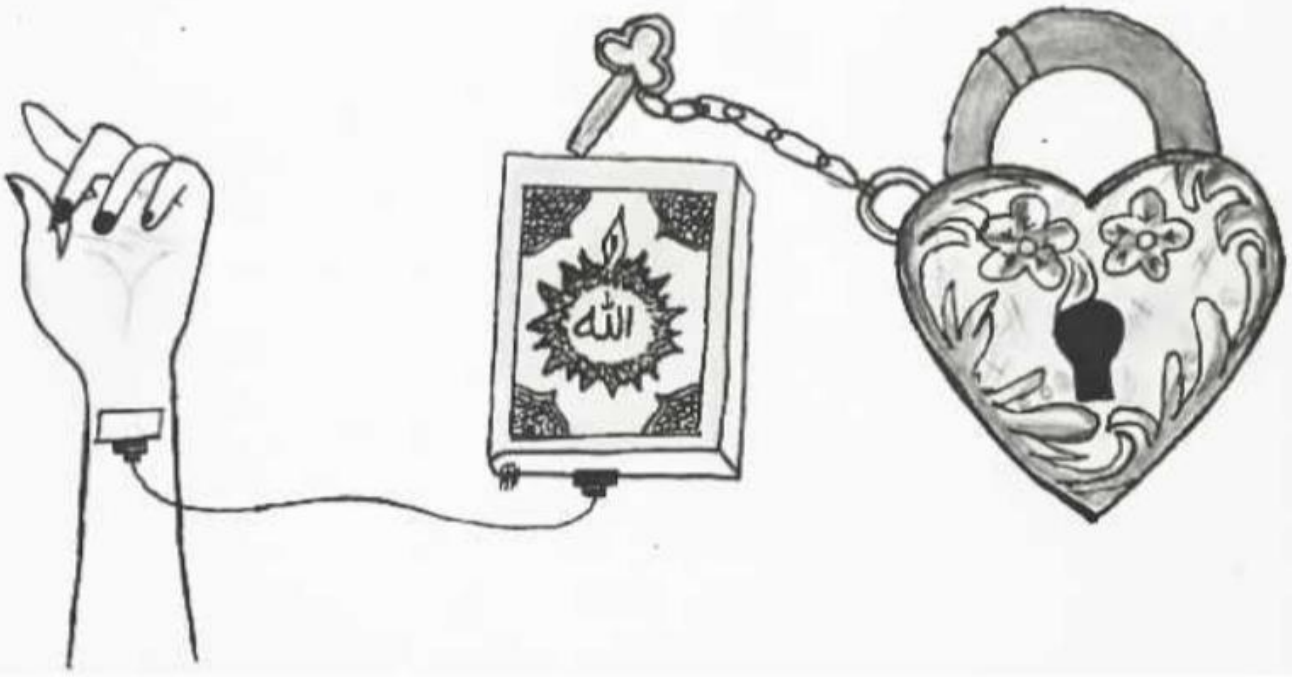

- الرسامة: حبيبة سيد.

غِيَابُهُ ظَلَامٌ

لوجينا صلاح

تصحيح١: إسراء فتحي

فتاة قوية جميلة المظهر في العشرينات من عمرها تسمى سلوى، في الصباح الباكر في يوم من الأيام كانت تجلس وحيدة لا تعلم ماذا تفعل، كل شيء غير كافٍ لإسعادها، أسلوبها ليس طبيعيًا، كأن القسوة ملأت قلبها ولا تعلم ماذا يحدث لتخفيف ذلك الحمل ولا أين تذهب، تَرى كل ما حولها ظلام رغم الطيور والحشائش والنباتات الطبيعية الخضراء، فهي تعيش في الريف في بيتٍ يسكنه الحب والأمان العائلي، لديها أخوان لم يتجاوزا الخامسة بعد.

ابتسامتها فيها شيء من السخرية والآلام، كأن غيابه صاعقة على قلبها، فكان كل شيء في حياتها، غيابه ظلام ووجوده نور يهديها حيث تشاء، كأنه كل السُبل إلى سعادتها والطريق الوحيد للنجا، لا يفارقها غيابه ولا كلماته ولا بلاغته التي يعجب منها كبار العلماء، وبعد تفكير قررت الذهاب إلى صديقتها هاجر.

ذهبت إليها ووجدتها جالسة مع أمها، وبالترحيب قالت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا حبيبتي، أهلًا ومرحبًا يا خالتي، كيف حالكم؟

- وعليكم السلام، بخير والحمد لله.

جلست وبدأتا تتحدثان، ثم تدخلت الخالة وقالت: ما بكِ يا حبيبتي؟ يبدو وجهك شاحبًا، أيؤلمك شيء؟ ماذا بكِ؟!

سلوى: شيء من الإرهاق والتعب وعدم انتظامي في حفظ كتاب الله.

الخالة: أزال الله همك وغمك، سأتركك مع صديقتك هاجر لعلها تخفف عنك، وتجد حلًّا يسعدك.

وبعد أن انصرفت الخالة بدأ الحديث بينهما، قالت هاجر: ألهذا الحد ظهر الألم؟

سلوى: أتعلمين أن شعور الذنب لا يفارقني وأني مقصرة لا شك في حفظ كتاب الله؟ فلو نظرنا إلى حالنا اليوم لوجدنا تضييعًا للأوقات، وانسياقًا خلف الفتن والشبهات، وهجرًا للقرآن الكريم رغم ما فيه من هداية وتوفيق وحكم بالغة، ورغم أنه كلام الله الذي فيه الدواء وبه النجاة من النيران، ألهتنا الدروس والمدارس والعمل عن حفظ القرآن الكريم وتدبره.

قالت هاجر والابتسامة على وجهها: لا بأس يا أختاه، تعالي نتعاهد على أن نعود بلا رجوع، تعالي لنتخلص من تلك الآلام، إنه الونس وقت الوحدة حقًا، إنه سبيل لكل طريق.

ثم أكملت قائلةً: نحن مغفّلون، أولا نسمع قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُنـزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ...﴾.

إنه رحمة يا حبيبتي سلوى، يعيد إليك البهجة والسرور، إنه والله نِعم الصديق، يرشدنا إلى الصواب وسط الحيرة، ويعمل على المساواة بين الرجل والمرأة، تعالي لنصلح ما أخطأنا فيه، ونبتعد عن تلك الملهيات والشهوات، ونحفظ ما تركناه، لعل الله يقبلنا ويجعله ربيعًا لقلوبنا.

سلوى: اللهم آمين. ثم سكتت برهةً وأكملت: لكن أخاف أن أتكاسل وأتراجع عن حفظه مرة أخرى، فما رأيك في أن نذهب إلى الدار كي نتابع مع إحدى المحفّظات؟ فعندما تلهينا الحياة والمشاغل نجد ما يُذكّرنا.

تلت هاجر عليها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

ثم قالت: فلنتوكل على الله يا أختاه، لعل الله يقبلنا ويهدينا.

وبالفعل ذهبتا إلى الدار وبدأتا الحفظ، وعندما أتمّتا الحفظ في أولى حلقاتهما وكانتا على وشك الانصراف، أخبرتْهما إحدى الأخوات أن هناك ندوة تتحدث عن القرآن الكريم والسنة النبوية، فجلستا واستمعتا إلى تلك الندوة، وكانت في غاية الأهمية وكأنها رسالة من الله إليهما، كانتا منصتتان بكل صمت إلى بعض الكلمات العالقة، وهي: عند حضور حلقات القرآن حذار أن تُشغل قلبك بغيره لتفهمَ دينك، وتظل على صلة بمبادئك الحميدة، ويستنير بها طريقك، ويشتد بها أزرك، لتكون ابنَ الإسلام حقًّا، لتصنع له حاضره ومستقبله، بداخلك الأمل وفي الله الرجاء، أسأل الله تعالى ألَّا يخيِّب فيه رجاءنا.

كما أن الرسول ﷺ قال: «يُقَالُ لِصاحبِ الْقُرَآنِ: اقْرأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَما كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ منْزِلَتَكَ عِنْد آخِرِ آيةٍ تَقْرَؤها» [رَوَاهُ أَبُو دَاوُودَ، والتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ].

وهذا يدل على مكانة القرآن الكريم العظيم، وأنه يرفعك كما كنت ترفعه في الدنيا.

كما قال الرسول ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»، والله يقول: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾.

فأنت عند قراءته لا تقرأُ مجلة أو كتابًا أو ما شابه، أنت تقرأ أجمل وأيسر الكلمات المنزلة من الله سبحان وتعالى، يجب أن تدرك ذلك جيدًا، ولا بد من حضور القلب للاستشعار بجمال الآيات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ جاءت هذه الآية أربع مرات في سورة القمر.

أي لقد جعلناه يسيرًا وسهلًا، فهل من حافظ له؟! والاستفهام هنا بمعنى احفظوا وتدبروا، واعملوا واتعظوا بهِ.

ومن أهم الخطوات لطريقنا إليه هي إتقان التجويد وقراءته به، وألا نستخدم المقامات الصوتية بتاتًا تجاهه ونبتعد عن ذلك الأمر، فالبخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أذِنَ لنبيٍّ حسنِ الصوتِ يتغنَّى بالقرآنِ يجهرُ به».

«إذًا تحسين الصوت بالقرآن مستحب بإجماع السلف والخلف، لكن المُحرّم على القارئ حرمة شديدة هو الخروج عن قواعد التجويد وآداب التلاوة بلحن أو تطريب، فكل ما أخرج القرآن وعدل به عن نهجه القويم إلى الاعوجاج فهو حرام»، لقول الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وإضافة أيضًا يجب أن نكون حذرين من الاعتقادات التي تجعلنا نشعر أنه صعب، وهي:

- ارتكاب الفواحش والمعاصي.
- الانشغال بلذائذ ومتاع الدنيا.
- الحفظ العشوائي غير المنظم.
- قلة التركيز وتشويش الذهن.
- عدم المداومة على المراجعة.

العَبرات في عينيهما لا تتوقف، وكانتا في أشد التركيز، وعندها ذكرت إحدى الأخوات نصيحة، فقالت: قال رسول الله ﷺ: «الَّذي يقرأُ القرآنَ وهو ماهرٌ به مع السَّفَرةِ الكِرامِ البَررةِ، والَّذي يقرأُ القرآنَ وهو عليه شاقٌّ فله أجران».

فمرحبًا بأجران مع أجمل الكلمات، وأنقى الألفاظ وأحسن القصص، فلنتسابق ونحاول حتى الوصول.

وعند خروجهما قالت سلوى: الحمد لله الذي هدانا، وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يثبّتنا ويحفظنا من شر ما ألهانا.

قالت لها هاجر: لا تبكِ وتعالي لنتعاهد، إذا ألهت الحياة والمشاغل واحدة منّا توقظها الأخرى وتشجعها على إكمال حفظه، نعم.. إنه القرآن، فيه الكثير من البُشْريات، فالحرف فيه بعشر حسنات، وإن الذين عرفوا قدر القرآن فعملوا به وتدبروه جيدًا زادهم ذلك إيمانًا، وقادوا الأمم، وبلغوا القمم، وهانت الدنيا في أعينهم، ويهدينا إلى فعل الخيرات والمسرات التي تشير لكل مختلف السبل، إلى قلبٍ رحيمٍ لطيفٍ، وإلى الجنان، وإلى الفردوس يا صغيرتي.

انصرفت كلتاهما إلى منزليهما، وبعد مرور عدة أيام من المراجعة، والحفظ اليومي، وانتقالهما من صفحات لأجزاء من كتاب الله، والمداومة عليه، وترديد لبعض الآيات وقراءتها حتى إن كانت في المواصلات، أشرقت ملامحها من جديد، النور يشرق فيها وفي مَن ينظر إليها، عاهدت الله على عدم تركه مرة أخرى حتى إذا شغلتها الحياة.

وهما الاثنتان بدأتا تشقّان الطريق وحدهما -والله معهما قبل أي شيء- حتى أزالتا ذلك الظلام، ورأتا نور القرآن الذي يغير حياتهما، فهيّا بنا لِنَحفَظ القُرآن، أو لِنَمُت ونَحنُ نُحَاول.

بصمة قلم

قصة

مُسْتَقبّلٌ حُرّ

الكاتبة

روان محمد

حبيبة محمد

- الرسامة: خديجة اسكندر.

مُسْتَقْبَلٌ حُرٌّ

روان محمد

تصحيح١: فاطمة صبري

منذ عدة سنوات كان أبي يحدّث عمي بشكل شبه يومي، يطمئن على أحواله وأحوال العائلة، وفي أغلب تلك الأحيان كان يشنُّ الأعداء هجومًا على تلك المناطق التي يوجد فيها عمي، ودائمًا ما كنت أتطفّل عليهما وأحدّث عمي، نسترجع الذكريات أو أسرد عليه تلك الأنشودة التي ألّفتها من أجله، أما اليوم بعدما أدركت معنى الحرب والهجمات، أجلس طوال الوقت أتذكر تلك الذكريات وأتمنى أن تعود وأن أستطيع محادثة عمي ورؤيته ولو مرة واحدة فقط!

في ليلة السابع من أكتوبر استيقظت كعادتي ممسكة الهاتف لأتصفح مواقع التواصل، إذا بي أجد الجميع يتحدث عن نصر أكتوبر، ولكن ليس نصر السادس بل السابع، وعن شجاعة الفلسطينيين في الدفاع عن وطنهم الغالي. نجد قوات الدفاع بدأت هجماتها على الاحتلال وأخذت الأسرى وعاملتهم كما أمر الإسلام، حتى يشاهد الجميع كيف يعامل المسلمون الأسرى، وكيف هم يُعاملون أسرانا ويقتلونهم، كنت في البداية سعيدة، فهل سيتحقق النصر ويتحرر الوطن الغالي؟ ولكن بعد يوم، اثنان، أسبوع، أدركت أن الوضع ليس بجيد أبدًا، فالاحتلال يرتكب مجازر بشعة في حق المدنيين، ويا للأسف! كانت عائلة عمي ضمن المدنيين. أتذكر في أول يوم كان البيت يملؤه الحماس لتحرير القدس وأن يبقى عمي في بلد حر ويحيا مستقبلًا حرًا لأبنائه، ولكن بعد يومين أعلن الاحتلال الدخول في حرب مع القوات الفلسطينية، منذ تلك اللحظة أصبح الوضع كالكابوس، ليس علينا فقط، بل على كل من يعيش في غزة والضفة! قُتل النساء والأطفال، قُتل الأبرياء أمام العالم دون أي شفقة أو رحمة من حكام الدول، بعد أسبوع فقدنا ابن عمي الأكبر، ولكنه الأصغر! طفل لا يتعدى خمسة عشر عامًا، آهٍ وآهٍ من بكاء والدته وحسرة عمي على فقد ابنه.

كنت أتحدث مع ابن عمي بإحدى وسائل التواصل الاجتماعي، وكانت تلك وسيلتنا الوحيدة للاطمئنان عليهم، كان دومًا صبورًا؛ يشرح العديد من الأشياء غير المفهومة لي، أسأل عن حالهم فيُجيب: «الحمد لله ما دمنا أحياء نُرزق»، أسأل عن الطعام غير المتوافر لديهم فيقول: «يوجد ما يكفينا»، حتى جاء ذاك اليوم الذي استيقظت فيه فجرًا لأجد رسالة منه:

نحن خرجنا من البيت، قالوا إنهم سوف يقصفونه، أصبحنا مشردين بلا مأوى، سامحونا إن حدث لنا شيء.

صرتُ أبعث الرسائل في انتظار إجابة ولو بحرف واحد يطمئننا عليهم أنهم أحياء، أتذكر ذلك اليوم وجلوسي أنا وشقيقتي ونحن نبكي خوفًا على فقدهم وتحديدًا عمي أبي الثاني! كنت أعلم أنهم لن يبقوا أحياء وأننا

سنفقدهم عاجلًا أم آجلًا، ولكننا نحاول التمسك بأي أمل يخبرنا أنهم أحياء. أتعلم شعور أنك ستفقد أحدهم ولكن لا تعلم في أي وقت؟ أعتقد أن هذا أسوأ من فقد أحدهم فجأة، فالجلوس طوال الوقت بأعصاب تالفة سيء للغاية، يكاد يقتلك حيًّا.

«الحمد لله، كل شيء جيد، عدنا إلى المنزل ولكن جُرِحَت رأسي ومات عليٌّ ابن عمي، وأصيب أخي إصابة ليست بالغة، نحن بخير».

تلك الرسالة التي أرسلها بعد يومين من اختفائهم، جلسنا في راحة قليلًا ولكننا نخشي فقدهم، كنا نلوم أنفسنا مرارًا على توافر المأوى والطعام برفاهية وهم لا يملكون شيئًا، قاطع سيل أفكاري أبي وهو يناديني لنجلس معًا كعائلة، وكالعادة منذ بداية الحرب ونحن نتحمس كلما جلسنا مع أبي حتى نستمع لقصته هو وعمي.

قبل ثلاثين عامًا، كان يجلس مع صديقه المقرب في بيته بالقاهرة، يلعبان حينًا ويدرسان حينًا، كانا أخوين ليسا صديقين فقط، هذا هو طارق الذي يكون مصريَّ وفلسطينيَّ الجنسية، وجاء مع أهله ليدرس ويقضي حياته في مصر، وفي تلك السنوات تعرّف على صديقه محمد، ولكن كما يقولون: «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن»، إذا بطارق يخبره والداه أن عليهم العودة إلى فلسطين، لإكمال ما بقي من عمرهم في ذلك الوطن الذي ترعرعوا في كنفه واستمتعوا بكل ما فيه من مزايا، وبقدسه الشريف قبل أنا يُحتَل ويقع في أيدي جبناء. لم يعرف كيف يُخبر صديقه بأنه سيتركه ويغادر، وأن كل أحلامهما التي خططا لها معًا لن تتحقق بعد الآن! ها هو ذا طارق يجلس في بيت محمد وعيناه تدمعان، لا يعرف كيف يقول إنه سيُغادر يوم الأحد في الأسبوع القادم، نظر إلى صديقه قائلًا:

أخي وشريك العمر، أريد أن أُخبرك شيئًا.

نظر إليه باسمًا، ولكنه صُدم من منظره، فصديقه الذي لا يهاب أحدًا يبكي ولا يعرف لماذا، دُهش من هذا الأمر الذي يجعله يبكي هكذا، ولكن سرعان ما قطع تفكيره صوت صديقه قائلًا:

نحن سنعود إلى فلسطين مرة أخرى!

أجابه سريعًا وهو يعلم أن عائلته تسافر كل عام مرة أو مرتين لزيارة عائلتهم هناك:

هل ستسافر معهم هذا العام؟ ما المشكلة إذًا؟ لم تسافر هناك منذ مدة طويلة، ولكن لتعدْ سريعًا، فأنا لا أستطيع أن أكمل هكذا دون رفقتك.

بعد أن أخبره طارق بأنه سيسافر إلى الأبد ليلتحق بالجامعة هناك ولربما يتزوج هناك أيضًا، صُدِم محمد وترجّاه أن يبقى ولا يتركه، ذكّره بخططهما للمستقبل، وأخبره أن ليس لديه رفقاء إلا هو، فكيف تكون الحياة دونه، قال الكثير، ولكن لا أحد منهما يقدر على منع هذا القرار، لا أحد إلا والديه. ظن محمد أن طارقًا سينساه بمجرد رحيله، وظن أنه يستطيع أن يُكوّن صداقات ويستمر بعد أن يُسافر صديقه، لكنه لم يعلم أن الأماكن ستبقى تذكّره برفيقه، ذلك المقعد الذي جمعهما في المدرسة، وتلك الأربعة جدران التي تشاركاها معًا، ذلك الشارع الذي شهِد مشاجرتهما الأولى، وتلك الكرة التي لعبا بها معًا، كل شيء يذكره بطارق، ذلك الرفيق الذي لن ينساه أبدًا وتلك العائلة التي كانت كعائلته تمامًا، لا أحد يعلم مرارة الفقدان إلا من عاشه، لا أحد يعلم إحساس فراق الصديق المقرب، الذي كان بمنزلة أخٍ لك، رضي الله عن كل صديقين يُعينان بعضهما على الطاعة والتقدم.

بعد عدة أيام من مغادرة طارق مصر والتحاقه بالكلية الإسلامية بفلسطين، استطاع أن يتواصل مع صديقه ولم ينسه قط، مرت الأيام والشهور حتى مرَّ أربعة عشر عامًا على افتراق الصديقين، وفي تلك السنوات زار طارق صديقه بالتقريب خمس مرات حتى تزوج طارق وتبعه محمد بعد عامين، وجئت أنا وأخوتي وأبناء عمي.

كنا دائمًا ما نشتت أنفسنا بالذكريات وأنهم سيعودون سالمين، يظل الإنسان طوال حياته يبحث عن طرق لنسيان الذكريات، ولكنها تلك التي يبحث عنها عند فقدان صاحب الذكرى، تلك الذكريات التي لا تُمحى بمرور الوقت، هي الشيء الوحيد الذي يحتضنك ويواسي قلبك عندما تتألم، تلك التي نعيش عليها جميعًا، فأنا أتذكر طفولتي على الرغم من أن مُرّها كان كثير، وأنت تتذكر والدك الذي فقدته وكم كان أبًا رائعًا، لم تدرك ذلك إلا عندما ذهب، وذاك يتذكر صديقه الذي تخلى عنه وتحدث عنه بسوء، فقط ذكريات تبقينا أحياء.

نحن منذ ولادتنا ونحن نُربَّى على كره إسرائيل، وأنها حرب ليوم الدين، تلك الحرب التي ستبقى دائمًا بيننا وبينهم، علمت بتحرير القدس عدة مرات وأنها دائمًا كانت مطمع الجميع، تلك التي طمع فيها الجميع وتحررت عدة مرات على يد عمر بن الخطاب، والمرة الثانية على يد صلاح الدين، ثم الملك الناصر داود، ومن بعده الملك الصالح نجم الدين أيوب حتى وقعت في يد من لا يعرف للإنسانية معنى، هؤلاء أبناء اليهودية الذين يقومون بمجازر كل ساعة يُستشهد فيها الأطفال والنساء. كنت أجلس مع أصدقاء شقيقتي الصغرى وأتعجب، كيف لا يعرفون عن تلك الأرض المقدسة فلسطين الحبيبة؟! كنت عندما أتقابل معهم أخبرهم بعض المعلومات وأحفزهم بالجوائز عن طريق أسئلة، حتى جاءت تلك الحرب التي تغيّر بها الكثير، تلك القضية التي خِفنا أن ينساها أطفالنا، الآن وبعد الحرب أصبح الجميع -الصغار قبل الكبار- يُقاطعون كل شيء يعود ربحًا لإسرائيل، الأطفال يسيرون في الشوارع يُنشدون لفلسطين، ويذهبون لشراء الحلوى ويسألون قبل

شرائها: هل هذه معنا أم علينا؟ أصبحت منتجاتنا المحلية هي الأولوية لنا، تلك الحرب غيرت الكثير في قلوبنا، أتذكر أمل دنقل حين قال:

إنها الحربُ!

قد تثقل القلبَ..

لكن خلفك عار العرب..

لا تصالحْ.. ولا تتوخَّ الهرب..

لا تصالح على الدم.. حتى بدم!

لا تصالح! ولو قيل رأس برأسٍ

أكلُّ الرؤوس سواءٌ؟

أقلب الغريب كقلب أخيك؟

أعيناه عينا أخيك؟

وهل تتساوى يدٌ.. سيفها كان لك.. بيدٍ سيفها أثْكَلك؟

سيقولون:

جئناك كي تحقن الدم..

جئناك. كن يا أمير الحكم

سيقولون: ها نحن أبناء عم.

قل لهم: إنهم لم يراعوا العمومة فيمن هلك

(بعد عامين).

يقف على منصة التتويج بعدما تسلّم شهادة تخرجه، يتذكر كل ما مضى وكيف استطاع أن يلتحق بالجامعة هنا، ها هو ذا عمر، نعم عمر ابن عمي الذي كنت أحدِّثه لأطمئن على أحوالهم في غزة، تعود ذاكرته لعامين، خاصةً حين كانت فلسطين الحبيبة في يد الاحتلال.

يمشي على الرصيف وتدخل تلك الرائحة الكريهة إلى أنفه، إنها رائحة الموتى، لا نستطيع أن نجد إلا الأجسام التي تقع على الوجهة، أما الذين يواجدون تحت الأنقاض، فلا تستطيع المعدات الوصول إليهم، يُكمل السير فيجد ذلك الطفل الصغير يبكي مناديًا على أهله، أجل.. قد فقدهم جميعًا، يسير ولا يُبالي، فقد اعتاد الأمر، هذا هو حال غزة دائمًا، ولكن في تلك الآونة اشتد قليلًا، سماع صوت الصواريخ موجود دائمًا، أصبح الجميع لا يهابه، فها هو ذا ابن العشرين عامًا منذ وُلد وهو يسمع هذا الصوت، فكيف له ألا يعتاد؟ يتذكر حينما كانوا جالسين بالمنزل وشعر والده باهتزاز فسأل والدته:

هل تشعرين باهتزاز؟ وكأنه يوجد زلزال.

صرخت والدته وهي تقول: أي زلزال هذا؟! المقعد يتحرك بك، انظر قد تحرّك من موقعه.

كان هذا صاروخ قد ضرب منزلًا بجوارهم وكانت آثاره بسيطة على منزلهم، فقط زلزال بسيط، وحينما كانوا في المنزل ويضعون الطعام، دوى صوت صرخات في طرقات الشارع حتى خرجوا وعلموا أن يجب إخلاء المنزل، هربوا جميعًا، والدته، ووالده، وإخوته، وظلوا مشردين خوفًا من الموت حتى قُصِف المنزل بالفعل، هذه هي حياتهم، أهذه هي الحرية التي يدعو إليها الجميع؟

استطاعوا أن يتحدثوا مع السفارة للخروج من الوطن، كان يجب أن ينجو بحياتهم أو يحققوا هدف الاحتلال والبقاء للموت، ولقد وقع اختيارهم على الخيار الأول، كان كالموت أيضًا، ولكن خاف والده أن يقع عليه اللوم إن حدث لهم شيء، هل يدينون قوات الدفاع أم والده؟ قوات الدفاع التي لم تفكر في المدنيين الأبرياء قبل أن تخطوا تلك الخطوة التي كلّفتهم العديد من الشهداء، والتي لم توفر لهم المزيد من الطعام الذي قد يحتاجونه بعدما فُرِض عليهم الحصار، من يُدان إذًا على استشهاد ابن عمي؟ من يُدان على استشهاد عائلة عم والده كاملة؟ تلك العائلة التي لم يبقَ منهم إلا ابنه وحفيدته! حينها تذكّر عبد الرحمن، ذلك الابن الذي ذهب لشراء بعض الطعام لكي تأكل عائلته وعاد، فوجد المنزل ركامًا! أخذ يحفر هنا وهناك ويُنادي على أبيه، وزوجته، وأولاده، ذاك الذي بعد ما تعرض له أصبح يسير باهتزاز محدّثًا نفسه، فقد تعرض لنوبة من النوبات النفسية، وابنته صاحبة العام الواحد التي نجت بأعجوبة من قصف المنزل وأصبحت تُربَّى معهم الآن، كان من الداخل يحترق على ذاك العذاب والظلم الذي تعرض له هو وأهل البلدة كاملة، والجميع يُشاهد من بعيد.

عاد من شروده على تصفيق الحضور له، فكان يُتوّج لكونه الطالب المثالي في دفعته، تلك كانت كلمته في أثناء تسلّمه الجائزة، كان الجميع يفتخر به وبقوته بعد ما تعرض له، وهناك.. هناك يقف والده وعائلته بأكملها يُصفقون له، لكن تعلقت أنظاره بأبيه، ذلك الرجل الذي سيبقى فخورًا به إلى الأبد.

بصمة قلم

قصة

صدق الكفاح

الكاتبة

حور الليالي

ندى عامر

- الرسامة: سارة عصام.

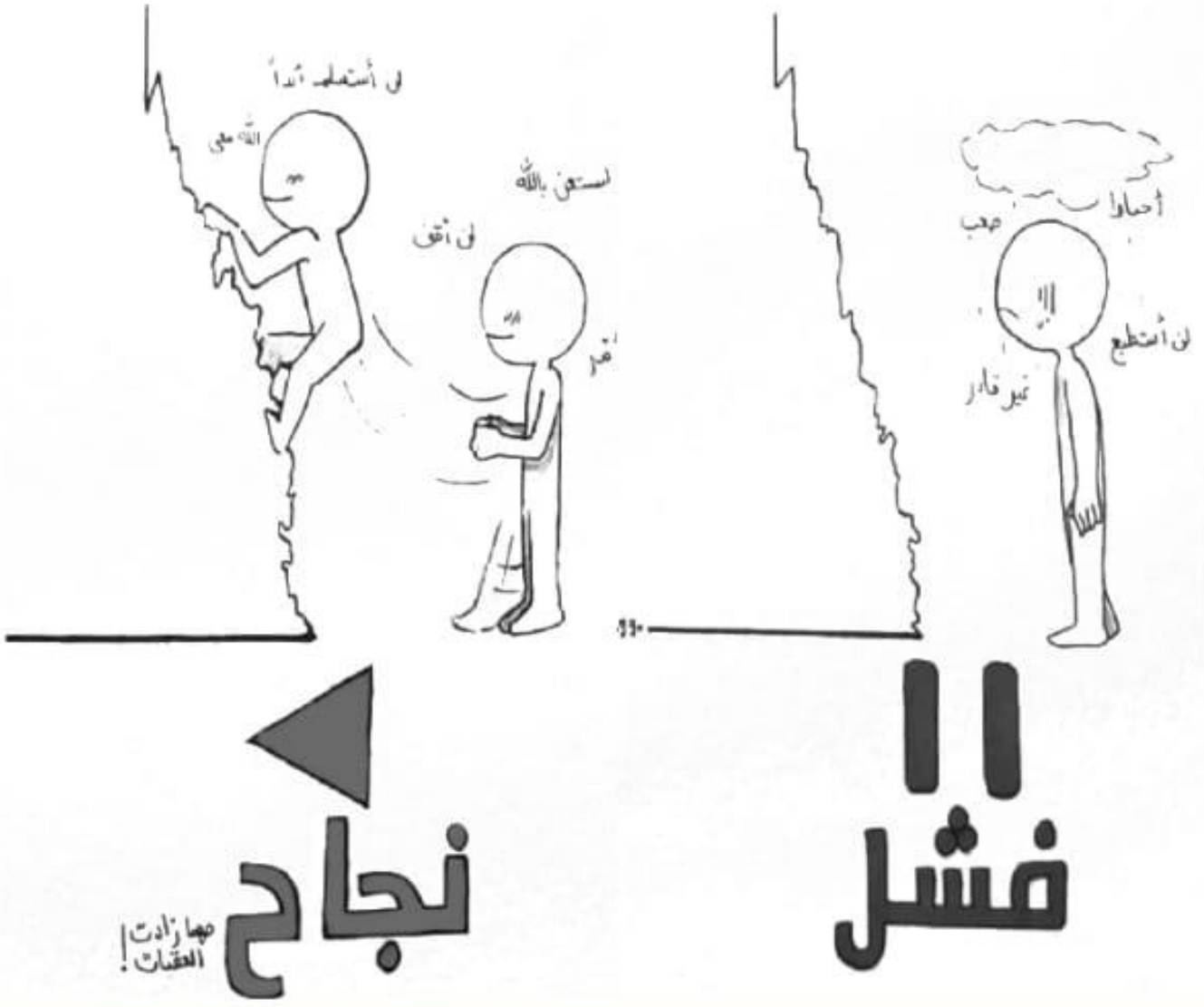

صِدْقُ الكِفَاحِ

حور الليالي

تصحيح١: فاطمة عادل

مرت الدقائق كأنها الدهر بطوله وما زال نائمًا، ونتائج التحاليل لم تصل بعد، نظرتُ إليه بكل ألم وقلبي يعتصر، وتمنيت أن أقاسمه آلامه وأحمل عنه القليل من أحماله وأوجاعه.

قَطع الصمت تأوهه وأنينه وهو يفيق.

مؤمن: تماسك يا صديقي، أنا بجانبك.

أكمل بصوتٍ خافتٍ متألم: ماذا حدث؟

مؤمن بضحك: كعادتك يا صديقي، أوقعت قلبي وأنقذتني من الاختبار.

دخل الطبيب وقال مقاطعًا: ماذا تناولت؟ اعترف!

أكملُ مدافعًا عن نفسه: القليل من الطعام الحار فقط.

جاسر الطبيب: هل القليل حقًا؟

أكمل محمود توفيق طالب في الثانوية الأزهرية، مريض بسرطان الدم منذ سنتين، عمره سبعة عشر عامًا وشارف عامه الثامن عشر.

بُنّيّ العينين كلون القهوة، طويل القامة، مرح رغم ما يمر به، مات والده وهو في السابعة من عمره، تكفلّتْ بتربيته ورعايته أمه فقط، فلا أقارب لديه إلا خالته.

مؤمن منصور الشاعر هو صديق أكمل منذ الطفولة، مثله في الثانوية الأزهرية، يزيد عنه بثلاثة أشهر، فهو في عامه الثامن عشر. عسليّ العينين، طويل القامة، مشاكس ومرح، يحاول بذلك أن يساعد صديقه ويخفف عنه آلامه.

جاسر الشاذلي طبيب أكمل منذ بداية رحلته مع سرطان الدم، في عامه السابع والثلاثين، يتعامل مع أكمل بأخوية، فهو يحبه كثيرًا، متزوج من ابنة عمه ولديه طفلة صغيرة عمرها أربع سنوات.

جاسر وفي يده التحاليل: حسنًا، نحن في تقدم يا أكمل؛ لا تُهمل الآن، حافظ على طعامك قليلًا، ألا تريد أن تتخلص من آلامك؟

أكمل بتنهيدة: أعتذر، ولكن... لا أعلم، شعرت بيأس للحظة فقط.

مؤمن وهو يُربّت على كتف صديقه: لا تقلق يا صديقي، فربّ الخير لا يأتي إلا بالخير، إياك أن تَهون عليك نفسك وتقصّر في حق نفسك وتؤذيها، وإلا سأشدّك من أذنك، أتسمع؟!

جاسر بضحك: أجل، وأنا أوافق على هذا. هيّا الآن اذهبا وادرسا ما فاتكما من درس اليوم، لا أريد تضييع وقت، أتسمعان؟!

أكمل ومؤمن: حسنًا!

أنا وأكمل في الثانوية الأزهرية الآن، اقترب موعدنا مع أول اختبار لنا في هذه السنة التي جعل منها المجتمع رعبًا لكل طالب وأسرته.

أكمل مصاب بسرطان الدم منذ فترة ليست قصيرة أبدًا، أذكر حينها أنه كان هو من يُهوّن على والدته صدمتها، كان صامدًا كالجبل، يردد: «الحمد لله» فقط، يحتضن والدته ويقول لها: لا بأس يا أمي، سيَمُرّ.

كنا معًا منذ طفولتنا، فهو أخي وليس فقط صديقي، ازداد تعبه كثيرًا هذه الفترة، أظن أنه بفِعل التوتر وضغط الدراسة. نحن في الشّعبة العلمية، أعلم أن الكثير سيقولون: الشّعبة الأدبيّة أسهل بالنسبة لحالة أكمل. ولكن أنا أقول إنه لا فرق بين الشّعبتين، فالتوتر واحد، الدراسة والسهر واحد، فرق المواد لا يصنع كل ذلك الفرق بين الشّعبتين الذي صنعه مجتمع عقيم!

صمّم أكمل على دخوله هذه الشّعبة لحالته، ولِما يعانيه، ولِما يراه في المستشفى دومًا من صرخات الكثيرين المكتومة التي لا يسمعها معظم من دخلوا الطب ليُسمّوا أطباء، لا يسمعها من عمل في مستشفى تحت مسمى (استثماري)، فبالنسبة لنا الناس ليسوا سلعة، صرخاتهم ووجعهم يحتاج طبيبًا وليس مستثمرًا!

أكمل بصوت مرتفع وهو يدخل بيته: أمي!

فاطمة: تعالَ، أنا في المطبخ.

أكمل وهو يضع حقيبته: أعلم أعلم؛ شممت الرائحة.

فاطمة بضحك: هيَّا خذ حمَّامًا، وستجدني قد وضعت الطعام فورًا.

أكمل وهو يقبّل وجنتها: سلمتِ يا فاطم.

فاطمة عبد العظيم والدة أكمل، في الثالثة والأربعين من عمرها.

انتهى من أكله ورّن هاتف مؤمن حتى يدرسا.

بدأنا ندرس، وبدأت رحلتنا الليلية مع الكتاب!

بعد ثلاث ساعات رّن هاتف أكمل.

أكمل مجيبًا: نعم؟

مؤمن: يكفي الآن، فقد تعبتُ كثيرًا.

أكمل: لننهي هذا الباب فقط، ثم نَم.

مؤمن: لا، لن يحدث. سأنام الآن، وأنتَ أيضًا، فقد تعبتَ.

أكمل بابتسامة: شكرًا لك، ليلة طيبة.

مؤمن: ليلة طيبة يا صديقي.

مؤمن في نفسه: حسنًا كنت أتحجّج بتعبي حتى لا يشعر بشيء سيء، فلا يجب عليه أن يرهق نفسه هكذا، أعتقد أنه انتبه إلى هذا، في المرة القادمة سأصنع حجة أخرى تبدو لائقة قليلًا.

في اليوم التالي دخلت أنا وأكمل إلى حصة الفيزياء، وكان استقبال المعلم لنا لا يُنسى.

المعلم: أهلًا بمن يُضيّعون وقتهم، ووقتي، ووقت زملائهم، إلى الخارج ولا تأتيا مرة أخرى، فلا وقت عندي أضيّعه مع مريض، وآخر يجري مع المريض.

أحد الزملاء: أعتقد فعلًا أنكم تضيّعون الوقت، فلا فرصة لكما، وفي كل مرة يحدث شيء وتتركان الحصص فجأة، أغبياء فقط!

أكمل: شكرًا لتحفيزكم هذا، فعلًا كنت في مرحلة يأس، ولكن أفقت على هذه الكلمات، هيّا بنا.

حينها غادرنا بهدوء، خفت على أكمل، غضبت من كلامهم كثيرًا، رد أكمل أخافني أكثر، لا أحب أن أراه هادئًا، لا أحب ابتسامته تلك!

تحدّث أخيرًا.

أكمل: قررت أن لا أذهب لدرسٍ بعد اليوم.

مؤمن متفاجئًا: ماذا؟

أكمل: كما سمعت، سأكمل في البيت، لا شيء صعب، انتهت المواد وبإمكاني مراجعتها وحدي.

مؤمن: أجل، كنت سأفعل ذلك منذ البداية.

توقف أكمل عن السير.

أكمل: لا، أنت ستذهب، لا تربط نفسك بي.

مؤمن: أنت من تُقلّدني، هذه فكرتي منذ البداية.

أكمل: مؤمن، لا تُصعّب الأمور عليّ.

مؤمن بمرح: لا تقلق، سأجعلها سهلة وأشتري لك الآن كعكة طعمها رائع.

أكمل بابتسامة: لا أعلم كيف أشكرك حقًا.

مؤمن: لا تجعل ذلك المعلم يقول في نهاية العام: أخبرتك ألّا تضيع وقتك.

أكمل: أعدك.

مرت الأيام سريعًا ونحن ندرس، لم تخلُ من تعب أكمل، وأحيانًا لا يدرس ويتوقف بيأس، ولكنّي لا أتركه، وها نحن أولاء الآن في طريقنا لأول اختبار لنا، كاد قلبي يخرج من مكانه وأطرافي متجمدة، أكمل لا يبعد كتابه من أمامه طوال الطريق.

وصلنا إلى وجهتنا المرعبة، دخلنا المدرسة، لم نبقَ طويلًا، وها نحن أولاء الآن أمام أول ورقة اختبار، جلست فترة أفكر في أكمل ولا أستطيع البدء، فهو ليس معي بالطبع، فأنا اسمي يبدأ بالميم، قررت أن أنهي اختباري سريعًا لأراه.

(بعد الاختبار في فناء المدرسة).

مؤمن بثبات: كيف كان؟

أكمل بتنهيدة: لا أعلم ولا أريد.

مؤمن: حسنًا، هيّا إلى المادة القادمة.

جلسنا ندرس حتى دق الجرس معلنًا عن بدء الاختبار الثاني، أحسست حينها أني أُصبت بتبلّد، لم أخفْ! فالرهبة في أول اختبار فقط، وبعدها الأمر يكون عاديًّا نوعًا ما.

انتهى اليوم أخيرًا، سرنا في الطريق في صمت، وأخيرًا ودّعت أكمل وصعد إلى منزله وأنا ذهبت إلى منزلي، دخلت في صمت إلى غرفتي، وبعد قليل دخل والدي.

منصور: كيف كان أول اختبار لك؟

مؤمن: أنا حقًا لا أدري.

منصور: لا تفكر فيه؛ لقد درست جيدًا وانتهى، وأسأل الله أن يوفقك.

الآن كيف حال أكمل؟

مؤمن: ليس أفضل مني، فنحن لم نتحدث منذ انتهينا.

منصور: لا أقصد الاختبار، كيف حال علاجه؟ فقد أخبرني جاسر أنه سيبدأ في آخر مراحل العلاج بعد انتهاء اختباراته.

قفز مؤمن فرحًا: أحقًا يا أبي؟!

منصور: أجل بالطبع، أخبِره بذلك لعلّه يسعد ويتحمس لأنْ ينهي اختباراته بأحسن وجه.

مؤمن: أجل، سأفعل.

قطع حديثهم صوت حنان: هيَّا، الغداء جاهز يا أهل البيت.

منصور بضحك: سلمت يداكِ، نحن في الطريق.

هيَّا وإلا ستأكلنا أمك.

مؤمن: سأحدّثه أولًا.

منصور: أخبره أن عليه زيارة جاسر اليوم في المستشفى، ليفهم إلى أين وصلت حالته بعد كل الصعوبات التي تخطاها، أظنّه سيطمئن ويتشجع بعد سماعه كلام جاسر.

مؤمن: حسنًا، وطبعًا لن تمانع ذهابي معه، أليس كذلك؟

منصور بضحك: لا مانع، ولكن عودا سريعًا وابدأا في الدراسة بكل حيوية ونشاط، أتفقنا؟

مؤمن بفرحة: أكيد، اتفقنا.

حدّثته وسمعت نبرته الفَرِحة أخيرًا، لقد بكى معي، ارتحت كثيرًا حينما بكى حقًا.

حنان محمد والدة مؤمن، في الأربعينات من عمرها.

منصور متولي الشاعر والد مؤمن، في الثامنة والأربعين من عمره، وصديق جاسر.

أغلق أكمل المكالمة مع مؤمن وذهب ليبشّر والدته التي تلقّت الخبر بدموع فرحة، وضحك، وشكر لله.

أخبرها عن موعده مع مؤمن، وأصرّت على الذهاب معه حتى تطمئنّ هي الأخرى.

في المستشفى وبالتحديد في مكتب جاسر دخل مؤمن وصديقه وفاطمة.

جاسر مُرحّبًا: أهلًا وسهلًا بالبطل، وأمه، وصديقه، تفضلوا.

مؤمن: حقًا أعجز عن شكرك وعن وصف ما بداخلي وشعوري الآن.

جاسر: لا تقلْ شيئًا واشكر ربك، فهو الشافي المعافي ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، فأمره بين الكاف والنون جل في علاه، وادعُ لصديقك أن يُشفى على خير ويستردّ عافيته عاجلًا بإذن الله.

مؤمن: دائمًا أعجز أمام لسانك.

أكمل: كنتَ وستظل الطبيب المثالي وقدوتي حقًا.

جاسر: حسنًا حسنًا، أعلم أني عظيم جدًا، لا داعي للإطراء.

ضحكوا، وتحدثوا، وخفف عنهم حِمل وضغط الاختبارات، فالطبيب حقًا طبيب القلب قبل البدن.

جاسر: والآن لنتحدث بجدية، هذا تعريف موجز وخفيف عن تفاصيل سرطان الدم، وعلاجه، ومراحله التي أنهيناها عدا آخر مرحلة، ننهيها على خير بإذن الله.

سرطان الدم أو اللوكيميا هو نوع من سرطان خلايا الدم والأنسجة التي تنتج خلايا الدم مثل نخاع العظم.

في الوضع الصحي الطبيعي، تنشأ خلايا الدم في نخاع العظم كخلايا جذعية، وتنضج بعد ذلك لتشكل أنواعًا مختلفة من خلايا الدم، خلال دم حمراء، أو خلايا دم بيضاء، أو صفائح، وتنتقل إلى مجرى الدم.

أما مَن يعاني من سرطان الدم، فيبدأ نخاع العظم لديه بإنتاج خلايا الدم البيضاء غير الطبيعية التي تدخل إلى مجرى الدم، وتبدأ بمنافسة خلايا الدم الطبيعية السليمة، وتمنعها من القيام بوظائفها بالشكل الصحيح.

أنواعه:

- سرطان الدم الحاد: ينمو بسرعة كبيرة، وقد يهدد الحياة.

- سرطان الدم المزمن: يتطور ببطء ويحتاج لفترة طويلة قبل أن تظهر الأعراض، وفي بعض الأحيان يُشخص سرطان الدم المزمن من خلال الفحص الروتيني قبل ظهور أي أعراض؛ لأن الخلايا السرطانية في هذه الحالة تكون ناضجة لدرجة كافية للقيام بوظائفها، مثل خلايا الدم البيضاء الطبيعية قبل أن تبدأ بالتفاقم.

وأنواع أخرى نادرة غالبًا ما تصيب كبار السن.

عوامل الخطورة التي تزيد فرص الإصابة باللوكيميا:

- التعرّض لمستويات عالية من الأشعّة.

- التدخين.

- التعرّض لمادة البنزين المستخدمة في الصناعات الكيماوية ودخان السجائر وغيرها.

أعراض سرطان الدم:

- الشعور بالتعب والإعياء.

- فقدان الكثير من الوزن دون سبب.

- فقدان الشهية أو الشعور بالامتلاء بعد تناول القليل من الطعام.

- سهولة حصول النزيف والكدمات.

- عدوى متكررة، وحمّى أو تعرّق ليلي غير مفسّر.

- انتفاخ العقد اللمفاوية خاصة في الرقبة وتحت الإبط.

- انتفاخ وانزعاج في البطن.

- تورّم ونزيف في اللّثة.

مراحل العلاج:

- العلاج التحريضي: يتمثل الغرض من المرحلة الأولى من العلاج في القضاء على أغلب خلايا ابيضاض الدم الموجودة في الدم ونخاع العظم، وإعادة إنتاج خلايا دم طبيعية.

- العلاج التوحيدي: يتمثل الغرض من هذه المرحلة من العلاج -التي تُعرف أيضًا باسم علاج ما بعد الهدأة- في تدمير أي خلايا ابيضاض دم متبقية في الجسم.

- علاج المداومة: تمنع المرحلة الثالثة من العلاج خلايا ابيضاض الدم من النمو مرة أخرى، وتُعطى عادة العلاجات المستخدمة في هذه المرحلة بجرعات أقل بكثير على مدار فترة زمنية طويلة تصل غالبًا إلى سنوات.

- العلاج الوقائي للحبل النخاعي: في أثناء كل مرحلة من مراحل العلاج قد يتلقى المصابون بابيضاض الدم اللمفاوي الحاد علاجًا إضافيًا للقضاء على خلايا ابيضاض الدم الموجودة في الجهاز العصبي المركزي، وخلال هذا النوع من العلاج تحقن غالبًا أدوية العلاج الكيميائي مباشرة في السائل الذي يغطي الحبل النخاعي.

يمكن أن تتراوح فترة العلاج بين عامين وثلاثة أعوام.

قد يتضمن العلاج ما يلي:

- العلاج الكيميائي: يُستخدم العلاج الكيميائي الذي يتضمن الأدوية للقضاء على الخلايا السرطانية عادةً علاجًا تحريضيًّا للأطفال والبالغين المصابين بابيضاض الدم اللمفاوي الحاد، ويمكن استخدام أدوية العلاج الكيميائي في مرحلتي العلاج التوحيدي وعلاج المداومة.

- العلاج الموجَّه: تُركِّز المعالجات الدوائية الاستهدافيّة على تغيرات شاذَّة محددة موجودة داخل الخلايا السرطانية من خلال تقييد هذا الشذوذ، يُمكن أن تتسبَّب المعالجات الدوائية المُوجَّهة في قتل الخلايا السرطانية، ويمكن استخدام العلاج المُوجَّه بمفرده أو مع العلاج الكيميائي في حال العلاج التحريضي أو العلاج التوحيدي أو علاج المداومة.

- العلاج الإشعاعي: يستخدم العلاج الإشعاعي حزم أشعة عالية الطاقة، مثل الأشعة السينية أو البروتونات للقضاء على الخلايا السرطانية، إذا انتقلت الخلايا السرطانية إلى الجهاز العصبي المركزي، فقد ينصح الطبيب بالخضوع للعلاج الإشعاعي.

- زراعة نخاع العظم: قد تستخدم زراعة نخاع العظام -التي تُعرف أيضًا بزراعة الخلايا الجذعية- كعلاج توحيدي أو لعلاج الانتكاس عند حدوثه. يُتيح هذا الإجراء للمصاب بابيضاض الدم إعادةَ تكوين خلايا نخاع العظام السليمة، من خلال استبدال خلايا نخاع العظم المصابة بابيضاض الدم، لتحل محلها خلايا نخاع العظم غير المصابة بابيضاض الدم المأخوذة من متبرع سليم.

تبدأ زراعة نخاع العظم بجرعات عالية من العلاج الكيميائي أو الإشعاعي للقضاء على أي خلايا نخاع عظم منتجة لابيضاض الدم، بعد ذلك يستبدل النخاع ليحل محله نخاع عظم من متبرع متوافق (الزراعة الخيفية).

- التجارب السريرية: التجارب السريرية عبارة عن تجارب تهدف إلى اختبار علاجات السرطان الجديدة والطرق الجديدة لاستخدام العلاجات الحالية، وعلى الرغم من أن التجارب السريرية تتيح لك أنت أو طفلك فرصة لتجربة أحدث علاج للسرطان، فإن مزايا العلاج ومخاطره قد تكون غير مضمونة.

علاج البالغين الأكبر سنًا.

غالبًا ما يواجه البالغون الأكبر سنًا، مثل من تزيد أعمارهم عن ٦٥ عامًا مزيدًا من المضاعفات الناتجة عن العلاجات، وعادةً ما يواجه البالغون الأكبر سنًا مآلًا مرضيًا أسوأ مما يواجهه الأطفال الذين عولجوا من ابيضاض الدم اللمفاوي الحاد.

مؤمن: هل عليّ أن أفهم كل هذا؟

جاسر: عليك أن تذهب من أمامي قبل أن أبرحك ضربًا الآن.

مؤمن بضحك: آسف آسف، لقد فهمت كل شيء.

فاطمة: متى ستنتهي آخر مرحلة؟

جاسر: حسنًا، لقد بدأنا بالفعل في المرحلة الأخيرة منذ ما يقارب سنة وعشرة شهور، أعتقد أنه سينتهي كل شيء بعد شهر أو يزيد قليلًا بإذن الله.

أكمل: أسأل الله أن يهوّنها عليَّ، فأنا أشعر أنها أطول مدة.

جاسر: لا تقلق يا رجل، ستَمُرّ بإذن الله.

انتهت الاختبارات، والآن يستعد أكمل ليذهب للمستشفى، فسيظل هناك فترة حتى يتم الانتهاء من مرحلة علاجه الأخيرة، وأخيرًا!

كانت أصعب الأيام حقًا، كان يتألم كثيرًا، لم أفارقه لحظة، كنت أصلّي معه، ونقرأ القرآن معًا دائمًا، كان يضحك عند زيارة والدته له، حقًا هو شخص لا يعوّض، فقد الكثير من وزنه، أصبح وجهه شاحبًا جدًّا، ولكنها فترة وستمرّ، سيأتي الأفضل، وستأتي سنوات بلا ألم أو دواء، أثق بالله.

حانت أصعب الأوقات؛ يوم إعلان نتيجتنا!

أكمل بعصبية: اجلس قليلًا، فقد فقدتُ أعصابي حقًا!

مؤمن: أنا لم أفعل شيئًا، أنت من يُفقدني أعصابي.

جاسر بصوت مرتفع: اسكتا الآن، لا أريد أن أسمع صوتًا.

(بعد دقائق).

أكمل بتعب وبصوت منخفض: ألم تظهر بعد؟

مؤمن: لا أخفيها حقًا.

أكمل: لم أطلب منك الإجابة.

مؤمن: ولكنك سألت.

أكمل: أُحدّث نفسي.

جاسر: إذا لم تصمتا، فسأغادر.

فجأة صرخ مؤمن وبكى بشدة.

جاسر وهو يمسكه: اصمت، نحن في المستشفى، اصمت.

مؤمن وهو لا يسيطر على نفسه: آه، الحمد لله الحمد لله، يا رب لك الحمد والشكر، يا ذا الجلال والإكرام.

أخذ أكمل شيئًا من جواره وألقاه عليه قائلًا: أنا هنا.

مؤمن: وصلنا يا أكمل، وصلنا.

أكمل بعدم سيطرة على صوته وأعصابه: ماذا تقصد؟ تكلّم.

مؤمن بدموع ونبرة مهزوزة من الفرح: حصلت على ٩٨% يا أكمل، أحسنت يا صديقي، أحسنت.

صرخ أكمل ولم يسيطر على نفسه هو الآخر، ظل يردد: الحمد لله الحمد لله.

أكمل: وأنت؟

مؤمن: ٩٦%. الحمد لله، الحمد لله.

جاسر: مبارك يا شباب! أسأل الله أن يجعلكما عونًا للمسلمين، وييسر طريقكما، ويرزقكما العلم النافع والقلب الرحيم، ويبعد عن قلبيكما حب المال والدنيا، ويسخركما لخدمة الناس، وأن يستعملكما ولا يستبدلكما، اللهم آمين.

كان يومًا لا يُنسى حقًا، كسرنا كل قواعد المستشفى حينها، كاد جاسر يجنّ منّا، تأهّل أكمل لكلية الطب البشري، وأنا تأهّلت لكلية طب الأسنان.

تلقّينا التهنئة والمباركات، كسرنا كل قواعد الكسل والتحجّج بالمرض، كانت حقًا سنة طويلة ومتعبة، ولكنّي على ثقة تامة أن طول الطريق بالصديق يقصر ويسهل، لقد رزقني الله بصديق لا يعوّض، لا أجرؤ على الخطأ أمامه، نتحاسب على الصلاة وعلى قراءة الورد، فقد نلنا ما نرجوا بفضل الله وكرمه ورضاه عنا، ليس أبدًا بسهر ولا دراسة طوال العام بلا توقف، هذه فقط أسباب، أتمّ أكمل علاجه وأتممنا دراستنا للطب، لم تكن سهلة أبدًا، ولكن لهدفنا ولعهد صداقتنا أكملنا، وبتوفيق من الله وصلنا غايتنا.

قاطع تفكيري صوت أكمل.

أكمل: أبي أبي، هيّا لقد متّ جوعًا، أمي أعدّت الطعام.

مؤمن: حسنًا يا صغيري، هيّا بنا.

أجل، هذا أكمل صغيري، وهل أجد أجمل من اسمه لأطلقه على ابني؟!

أنا الآن طبيب أسنان، تزوجت منذ سنوات، ولدي أكمل طفلي، وصورة صديقي في البيت، وصديقي طبيب جرّاح معروف، إنه موهوب جدًا، تزوج، ولديه فتاتان، سأُزوج إحداهما لأكمل، أنا واثق بالتأكيد. كان عهد طريقنا المهنيّ ألا نمتهن الطب مهما حدث، نحن أطباء ولسنا مستثمرين، لن نتخلى يومًا عن معاني الإنسانية والرحمة، فعملنا هو تخفيف ألم الناس، وليس زيادة الهم عليهم بمصاريف العلاج!

اليوم تواعدت مع أكمل أن نتقابل في بيتي ونجلس طوال الليل، فيوم غد هو عطلتنا، كم اشتقت له ولحديثه!

ذهبت لمحل عمله بعد إنهائي عملي وسألت عنه، فقالوا إنه يُجري عملية لطفل الآن، جلست أنتظره وأنا أدعو الله أن يكون في عونه، وينقذ ذاك الطفل لأبويه.

بعد فترة ليست قصيرة دخل رجل يسأل عن موعد انتهاء العملية، فقد طالت فترة جلوسهم في تلك الغرفة ونفذ صبره، كان منهارًا، وكانت معه امرأة يبدو أنها زوجته، منهارة تمامًا، دخل بعدهم عدد من الناس من الواضح أنهم عائلة ذاك الطفل، كان من واجبي أن أخفف عنهم قليلًا، وأقف بجوارهم، وأدعمهم في هذه اللحظة.

مؤمن وهو يربّت على كتف ذاك الرجل: لا تقلق يا أستاذ، سيكون بخير، ادعُ له، تماسك قليلًا.

الرجل ببكاء وانهيار: أنا قلق جدًا، ذاك ابني الوحيد، لن أتحمل فقدانه.

مؤمن: لا تقل هذا، سينجيه الله بالتأكيد، أنا واثق في ذلك.

كل هذا حدث وذاك الرجل جالس على ركبتيه ووجهه بين كفيه، رفع وجهه إليَّ وكانت الصدمة، إذ كان هذا الرجل هو المعلم الذي طردنا، المعلم الذي أهاننا وتسبب في جرح مشاعر صديقي، صديقي الذي يسعى جاهدًا لإنقاذ ابنه الآن، ربّاه!

المعلم برجاء وبكاء: سيكون بخير، صحيح؟

مؤمن بملامح جامدة: أجل بإذن الله، فأكمل أعظم طبيب.

المعلم: مَن؟

مؤمن: أكمل.

أسأل الله أن يرد لك ابنك سالمًا معافًى، بعد إذنك.

تركته وذهبت لمقعدي ثانيةً، لم أُرِد أن أجرحه، ولم أرد أن أقول شيئًا الآن، ليس هذا وقت الحديث، لن أشمت أبدًا، ولن أفرح بمرض ابنه بالتأكيد.

خرج أكمل من غرفة العلميات، يظهر عليه التعب، فهو في الداخل منذ ما يزيد عن ست ساعات، لكن على وجهه ابتسامة مطمئنة، خرج بوجهه البشوش رغم تعبه.

هرع إليه المعلم وزوجته والأهل جميعًا.

المعلم: كيف حال ابني؟ أخبرني أرجوك.

أكمل بابتسامة: بخير حال لا تقلق، الحمد لله الذي أعانني على إتمام الجراحة ورد إليه عافيته، سيفيق بعد نصف ساعة وستتمكن من رؤيته، لا تقلق. حمدًا لله على سلامته، بعد إذنكم.

شكره الجميع ببكاء وضحك، سلّم عليهم صديقي، وجاء إليَّ.

أكمل بتنهيدة: أنا حقًا متعب للغاية، أحضر لي قهوتي من فضلك، سأنتظر حتى أطمئنّ عليه وأكتب له العلاج المناسب ونذهب، أتفقنا؟

مؤمن بابتسامة: لا بأس يا صديقي، اتفقنا.

أحضرت له قهوته وجلس على مكتبه مغمض العينين، يظهر عليه الإرهاق، دق الباب وأزعج راحته.

أكمل باعتدال: تفضل.

دخل المعلم.

أكمل مُرحّبًا: أهلًا بك، تفضل بالجلوس.

جلس وبدأ الحديث.

المعلم: لا أعلم من أين أبدأ ولا ما أقول، أعتذر لك إذا أسأت إليك يومًا أو جرحتك.

قاطع أكمل حديثه: ليس من مقامك الاعتذار يا أستاذي، كنت في يومٍ معلمي، ليس لي الحق في الغضب مهما كان، كلماتك كانت لها تأثير عليَّ وعلى تصميمي على هدفي، وكان هذا في الماضي عندما كنت طالبًا يغضب ويترك قاعة الدرس، أنا الآن طبيب، مهما كنت غاضبًا منك فهذا واجبي، إنقاذ ابنك مهمّتي، ولن أتهاون في أدائها على أكمل وجه، فلا دخل أبدًا للماضي الآن، حسنًا؟

المعلم: لا أعلم ما أقول، ولكنّي حقًا آسف لضياع فرصة التعرف على شخص مثلك، ليس فقط كونك طالبًا.

أكمل بابتسامة: حسنًا إذًا، أنا أتشرف بالتعرف عليك.

_____

بصمة قلم

قصة

الانحياز الذاتي

الكاتبة

شذى أشرف

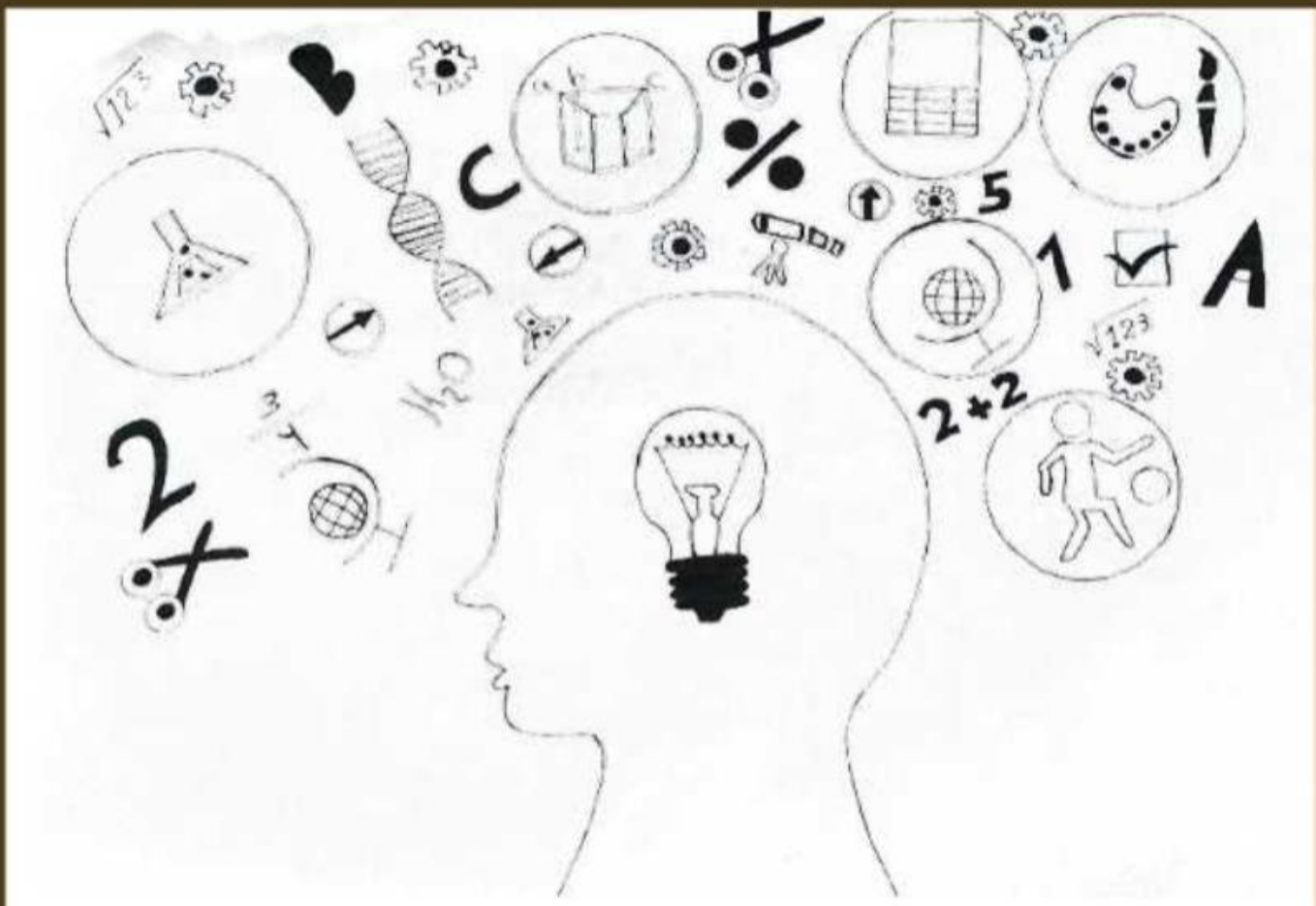

لن تجد الطريق إلا الذي تبحث عنه
-الرسامة: فرحة محمد.

الانْحِيَازُ الذَّاتِيُّ

شذى أشرف

تصحيح١: ضحى الديب

كنت أتأمل الطريق، مكانٌ لم أره مِن قبل، مظهرٌ خلّاب في نظر الجميع، لكنني لم أستطع رؤيته كما يرونه أبدًا.

هل تفهم معنى أن يُسلب منك كل ما بين يديك في ليلة وضحاها؟ أن تُسلب مِنك نفسك؟ أنا فهمتُ مُنذ تلك الليلة، وأُدرك الآن أنه ما زال هُناك الكثير لأفهمه.

انقطعت أصوات عقلي عندما سمعت صوت الكمساريّ وهو يُنادي ليعلن عن اقتراب الوصول إلى المحطة، هُنا بدأ صفير القطار، هُنا النداء للهبوط، هُنا تُرفع الراية لتعلن عن بدأ اللُّعبة!

هبطتُ من القطار وعقلي فارغ، ماذا سأفعل؟ لا أعلم.

أين سأذهب؟ لا أعلم.

أين أنا؟ صدقني، إنني لا أعلم هذا أيضًا.

بلدٌ لم أره مِن قبل، أُناسٌ يبدو عليهم الاختلاف في المظهر والملبس، شوارع ومباني لا أعرفها، مكان غريب لكنه مألوفٌ، رُبما لأنني اعتدت الغربة وسط أشباهي؟!

كُنت أسير، أنظر حولي لعلّ عقلي يعمل ويخبرني ما أفعل، لكن لا، إنه ليس عقلًا، بل قطعة لحمية متعفنة عفا عليها الزمن.

أكملتُ سيري، دقت الساعة الثامنة مساءً، كل ما أُريده الآن هو مكان لأنام فيه، ورُبما طعام كي لا أموت جوعًا.

كان معي بضعة أموال، رُبما قد تكفي لبقائي في فندق صغير، سألت أحد المارة عن أقرب فندق أستطيع البقاء فيه ودلّني عليه، وصلتُ الآن، وصعدت غرفتي بعدما تناولت بعض الطعام.

لقد عِشت حتى الآن اثنين وعشرين عامًا، لكنني أعلم أن هذا العام هو عمرٌ جديد. منذ عدة ساعات فقط هبطت مِن الطائرة لأستقل القطار، ليوصلني إلى حياة جديدة لم أعشها مِن قبل.

تمددت على سريري وأنا أحدّق في الحائط، من الغد يجب أن أبحث عن عمل، سافرت مضطرةً إلى بلد لم أره يومًا، أو لأكون صريحة معك لم يكن رُغمًا عني تمامًا؛ تركت أرضي وبلدي بإرادتي، لكنني أُرغمتُ على ذلك، ألم تفهم شيئًا؟ حسنًا، لا تهتم.

على أي حال فقد سافرت، لا يوجد مَن أعرفه هُنا، في الواقع، الآن لا يوجد مَن أعرفه من موطني الأصلي أيضًا، رُبما لا يوجد فرق، ففي كلتا الحالتين سأخوض الحياة وحدي، لا يوجد من يساندني. هل بضعة أقمشة كانت كافية لتغيير حياتي هكذا حقًّا؟! نمت نومًا عميقًا، لم أُرد أن يعمل عقلي أكثر من هذا، يكفي هذا اليوم.

استيقظت صباح اليوم التالي، يوم جديد مليء بالإشراق، مُفعم بالحيوية، يغمره السعادة في السعي، كُنت أتمنى أن أخبركم أنني استيقظت هكذا، لكنه لم يحدث لسوء الحظ، فقد استيقظت على كابوس مِن أبشع الكوابيس، استيقظت وأنا أحملُ مئة همٍ فوق رأسي؛ أكره العمل، وأكره السعي، وأكره الحياة، وأكره مغادرة سريري، ألا يُمكن أن تسير الحياة طبق هوانا دائمًا، لمَ السعي؟

بدّلتُ ملابسي، وغادرت الغرفة وأنا عازمة على الحصول على عملٍ اليوم. لم أكن أهتم بنوع العمل، ولا أن يكون متوافقًا مع شهادتي الجامعية التابعة لكلية الزراعة، كل ما كنت أريده هو مالٌ يبقيني على قيد الحياة.

أظن أن لا داعي أن أخبركم كيف مرّت كل مقابلات العمل التي قُمت بها، كانت النتيجة أليمة للغاية؛ رُفضت في جميعها دون تفكير؛ الجميع يبحث عن شخص تتفق أهدافه مع أهدف العمل، شخص راغب في التطوير مِن ذاته، لديه طموح يسعى إليه، وعندما كُنت أقصّ عليهم أن لا هدف لي من العمل سوى جمع المال، وأنني لم أعمل في حياتي من الأساس، وفي الغالب لا أفهم ما هذا العمل، أشعر وكأنهم سيبصقون على وجهي اشمئزازًا، ماذا أفعل إذًا؟ الساعة الآن الخامسة ولم أستطع الوصول إلى شيء، فكرت في أن أقوم بمحاولة أخيرة، دلّني بعض الناس على امرأة صاحبة إحدى أكبر شركات مصانع ملابس في الإمارات، قررت أن أذهب إلى أحد المصانع، لعلّي أرجع بفائدة. ذهبت، لا أعلم كيف لكنني قابلتها شخصيًّا، أجلس أمامها في غرفة مكتبها غير المُميَّزة نهائيًّا، لا تبدو كغرفة مكتب لإحدى أغنى النساء إطلاقًا. تلاقت أعيُننا الآن، أتأمل وجهها بتجاعيده، أتأمل عينيها الصغيرتين بنظارتهما المستطيلة التي تعلوهما، أتأمل جسدها النحيل ويديها المُرتعشتين، لا أعرف لماذا لكنني أشعر بالخوف حقًّا.

على الأغلب كانت هي أيضًا تتأمل مظهري، كنت أرتدي أكثر رداء رسمي وجدته في خزانتي التي تتكون من قطعتي ملابس، كنت أنظر إليها بعينيّ الواسعتين السوداوين، يتطاير شعري فيحجبهما ذهابًا وإيابًا بعد صمت طال لوقت لم أحصه من خوفي تحدثتُ قائلةً: اسمي هو أروى، أتممت عامي الثاني والعشرين مؤخرًا، كما أنني سافرت إلى الإمارات واستقررت البارحة، وأود أن أتشرف بالعمل مع سيادتك.

آيات: ظننتك خرساء يا فتاة، لكن ها أنتِ ذي تتكلمين!

قلت في نفسي: هل كانت تنتظر كل هذا أن أبدأ أنا بالحديث؟ ما بال تلك المرأة العجيبة؟!

أردفت آيات: حسنًا إذًا، تم قبولك في العمل.

ازدادت دهشتي أكثر فأكثر، هذه المقابلة كانت مرفوضة بالنسبة لي من قبل أن أرى تلك المرأة، فامرأة ناجحة مثلها لمَ قد تقبل فتاة لا تفقه شيئًا في هذا العمل؟ بل وكيف تقبل أحدًا في عمل دون أن تسأله أي شيء؟!

قطعت آيات حبل أفكاري قائلةً: ستعملين في ورشة خياطة حتى تتدربي وتتعلمي الصنعة.

أروى: كيف هذا؟ ألن أعمل في مصنع؟

آيات: هل تريدين أن تصلي إلى القمة دون أن تتسلقي الجبل؟

قلت في نفسي: هل تُسمين العمل في مصنع قمة؟! إنني لم أطلب منها أن أعمل في إحدى الشركات، بل مصنع!

لكن ما باليد حيلة، لم يكن بيدي شيء سوى القبول.

استيقظت في اليوم التالي لأبدأ عملي المُبهر للغاية، ومِن هُنا بدأت الصدمات تحلُّ عليّ واحدة تلو الأخرى، بداية بالزّقاق الأشبه بأزقة المناطق الشعبية الذي توجد فيه الورشة، إلى الورشة نفسها بمساحتها الضيقة ومكانها البسيط.

لم يكن عقلي قادرًا على استيعاب أن هذا المكان هو مِلك لامرأة مثلها، كانت صدمتي الثالثة عِندما قابلت الأستاذة آيات في الورشة، وعلمت أنها تُشرف على هذا المكان بنفسها، الآن يبدو الأمر فكاهيًّا حقًّا، كيف تستطيع أن تُضيّع وقتها في هذا المكان تاركة بقية أشغالها؟!

آيات: كيف حالك يا أروى؟ أخبريني كيف وجدتِ مكان عملك الجديد؟

أروى: بخير يا أستاذة آيات، إنه جميل.

آيات: لمَ لا يبدو على وجهكِ هذا؟ ماذا ظننتِ أنك ستلقين؟

في الواقع أردت أن أخبرها بما يجول في خاطري أن هذا المكان وصفه المناسب هو حاوية نفايات، حقًّا كُنت مشمئزة مِن هذا المكان، وأشمئز أكثر ممن يعملون فيه، ويبدو أن عينيَّ قررتا الإفصاح عن هذا رُغمًا عني.

أردفت أستاذة آيات قائلة: لا أعلم ما حكايتك وما شخصيتك، ولا يهمني أن تقصّي عليَّ الآن، فعلى أي حال أنا لا أؤمن بالكلمات، فما الصعب في الإتيان بعدة حروف وربطها مع بعضها البعض لتصبح كحلوى مزينة؟! أنا -إلى الآن- لا أعرفك، لكن أفعالك ستعرّفني عليكِ، فقط اعلمي أن القاعدة الأولى لكي تعملي معي هو أن تصعدي السلم لا المصعد، من أراد الوصول إلى هدف، ومَن أراد النجاح سعى لهما، ومَن أراد أن يعيش في هذه الدنيا تعرَّق جبينه من أجل العيش، وإلا يُسحق تحت الأقدام، وهذه أول قاعدة في هذا المكان.

غادرت غرفتها وأنا أتوسل لعينيّ كي لا تنهال عليَّ بالدموع الآن، فهذا ليس الوقت المناسب، لم أكن أتخيل أنني سأعيش هذا، أنا لم أتحمل مسئولية شيء حتى عمري هذا، هل يجب أن يكون العيش صعبًا إلى تلك الدرجة؟ تذكرت يومًا حينما كُنت في الخامسة عشر مِن عمري، كان أبي يذهب إلى العمل صباحًا ويعود في منتصف الليل، يعمل في وظيفتين معًا كلتاهما أشدّ إرهاقًا مِن الأخرى. كذلك أمي، كانت تعمل منذ الصباح، وتعود عصرًا لتُعدّ الطعام وترتب المنزل سريعًا، لتكمل عملها الذي بقي ناقصًا منذ الصباح.

ذات يوم سألتُ والدتي بتعجّب: «لمَ كل هذا؟» نعم، كُنت أعلم أننا لسنا أثرياء، لكننا لسنا فقراء أيضًا!

أجابتني أمي حينها قائلةً: مِن أجلك بالطبع، نحن نريدك أن تحصلي على كل ما تريدين، وأن تسعدي، وأن تعيشي كلّ ما لم نستطع أن نعيشه، لذلك نفعل كل ما نستطيع.

هكذا يا ابنتي، كلما ازدادت رغباتنا ازدادت خطواتنا. السعي والجهد هما مِفتاحا الأخذ، رُبما لن يقدر مفتاحك أن يفتح لكِ جميع الأبواب، لكنّه سيفتح كُلّ ما استحققته، وما قُدِّر لكِ من خير.

امتلأت عيناي بالدموع رُغمًا عني، لم أشعر يومًا بما فعلاه مِن أجلي، أين أنتما؟ أنا في أمسّ الحاجة لكما الآن، فلتعودا ولتحتضنانني من جديد.

كانت مهمتي في أول يوم هي أن أتجول في الأسواق والمحلات مع بعض زملاء العمل، ونلقي نظرة على المعروضات، ليس كي نقلّدها ونصنع مثلها، بل لنتجنبها ونفكّر في تصاميم أخرى لم توجد مِن قبل، فأحيانًا يجب علينا أن نخرج عن استقامة الخط ونقوم بإعادة تشكيله بلمسَتنا نحن، فالمألوفات مُملّة للغاية.

مرّ أول يوم وعُدت إلى الفُندق، ولا أخفيكم سرًا، لم تكن نهاية اليوم كسوء بدايته؛ شعرت أنني تعلمتُ شيئًا جديدًا وهذا ما كان يسعدني، مرّت العديد من الأيام منذ بداية عملي في الورشة، وقد كانت الأستاذة آيات تتابعني شخصيًّا، بل وتتابع كلَّ مَن يعمل في الورشة، لم أكن أفهم في البداية لماذا، لكن ذات يومٍ أخبرتني أن تلك الخيوط الرفيعة هي ما تصنع لنا تلك السترة السميكة، وأن لولا هذه الورش البسيطة لما خُلقت شركات فسيحة، حينها فقط أدركت أن الأساس المتين وحده الذي تستطيع الاعتماد عليه لتكمل بقية البناء.

كُنت أتعلم شيئًا فشيئًا في العمل، البعض تعلّمته بسهولة، والبعض أخذ مني الكثير من الوقت لأتعلمه، والبعض لم أستطع أن أتعلّمه حتى الآن، لكنني كُنت سعيدة بمحاولتي، ورُغم هذا كان يراودني الشعور بالخوف من أن أفشل أو أملّ، الخوف من تلك الحياة التي أُولد فيها لأول مرة بعد اثنين وعشرين عامًا.

ذات يوم جاءت الأستاذة آيات لتخبرنا أننا جميعًا مُكلّفون بمهمة، سنرسم تصاميم مختلفة من الملابس، ونصنعها، ونعرضها عليها، وصاحب أفضل مجموعة ملابس سيعمل مساعدًا لها، وسيُرقّى في العمل، وأمهلتنا أسبوعًا لننهي فيه التصاميم.

في الواقع كان الأمر شائقًا للغاية بالنسبة لي، لأول مرة أضع هدفًا لنفسي، لأول مرة أسعى إلى شيء نافع، لا يجب أن أخسر تلك المُنافسة!

عُدت إلى منزلي الذي استأجرته في منطقة بسيطة بعدما استطعت أن أجمع القليل مما جنيته من العمل، قررت أنني سأعمل طوال هذا الأسبوع كي أستطيع الفوز، سيكون هذا أول نجاح أحققه في حياتي، كنت أمضي يومي بأكمله وأنا أعمل، يأتي الليل وأرغب في النوم، لكنني أتذكر حديث أبي لي: يومًا ما لن نكون معكِ، رُبما ستكونين وحدكِ تمامًا، حينها تذكري كلماتي هذه جيدًا يا ابنتي، أفضل صاحب للإنسان هو نجاحُه، إن لم يكن لكِ هدف فابحثي عن هدف، وجاهدي للحصول عليه سواء حصلتِ عليه أم لا، شعور السعي والمُحاولة كفيل بأن يقتل شعوركِ بالفشل، يومًا ما ستكونين أنتِ، يومًا ما ستفخرين بنفسكِ، وسأفخر أنا ووالدتكِ بكِ، رُبما ستكون أجسادنا مُبتعدة عن بعضها البعض في هذا اليوم، رُبما ستتفارق أجسادنا، لكن تأكدي أن روحينا لن تفارقكِ يومًا، فأنت تعيشين بداخلنا، وستكونين دائمًا.

لطالما كنت أسمع هذا الحديث ولا أهتم به، كنت أشعر أن وجود أبي وأمي هو شيء طبيعي في هذه الحياة ولن ينتهي، لكنني علمت الآن أنه ينتهي كما ينتهي كل شيء، يفنى كما تفنى الأراضي، والبلدان، والعلاقات، والأشخاصُ بأرواحهم.

تسكن الأرواح داخل بعضها بعضًا وتترابط حتى تظن أنها روحًا واحدة، ثم يأتي القدر لينتزعها عن بعضها، فتتقطع أشلاء صغيرة، روحٌ تفنى وأخرى تظل حيّة، لكنها تعيش بأثر جُرح من الصعب التئامه، لكن شئنا أم أبينا الفراق هو سُنَّة الحياة.

مرّ الأسبوع وذهبت إلى العمل وبيدي تصاميم، لم أنم إلا بضع ساعات طوال الأيام السبعة كي أنهيها، كُنت أشعر أنها ستختارُني، وفي نفس الوقت كُنت خائفة.

عرضنا عليها جميع التصاميم وانتظرنا الردّ بكامل الجزع، ها قد فُتح باب مكتبها، وخرجت.

آيات: دعوني أخبركم في البداية أن كل من حاول فقد أحسن صُنعًا، ويجب على الجميع أن يستمر في المحاولة وألا يكتفي بذلك. الآن سأعلن عن أفضل تصاميم جاءتني، ومِن مكاني هذا أطلب من صاحب هذه التصاميم أن يعمل معي، أمجد حمّاد هو صاحب أفضل تصاميم.

العديد مِن الأيادي تصفق، وفي نفس الوقت العديد مِن القلوب تحطمت، كان أولهم قلبي. «لماذا؟»، كان هذا السؤال الذي تمتمت به طوال الطريق، إنني فعلت كل شيء، بذلت كل ما بوسعي، فلماذا لم أصل؟ أليس السعي هو مفتاح الأخذ كما قالت لي أمي؟ امتلأ قلبي بالسخط والغضب، كُنت أرى أنني أستحق أكثر من هذا المدعى أمجد، انخفضت رغبتي في العمل بعد تلك التجربة، كنت أذهب بلا رغبة، عُميت عيناي عن الحقيقة، وأضلتني نفسي، ولا داعي لأن أخبركم أن الأستاذة آيات استطاعت ملاحظة هذا الأمر بكل سهولة، لطالما كانت امرأة ذكية، على الرغم من شدّتها، وعلى الرغم من رهبة الجميع منها، لكنني أحببتها، يكفي أنها ساعدتني لأبدأ حياة جديدة.

ذات يوم استدعتني إلى مكتبها، فاستأذنت ودخلت.

آيات: هل أنتِ حمقاء؟!

أروى: لمَ؟ ماذا فعلت؟!

آيات: لم تفعلي شيئًا، وتلك هي المشكلة، إنكِ كالطفل الصغير الذي ضاعت لُعبته فأقسم أنه لن يستبدل شيئًا بها وظل يبكي.

أروى: أنا لا أفهم.

آيات: أتظنين أنكِ وحدكِ من يستحق؟ أتظنين أنك وحدكِ مَن يعيش صعاب الحياة؟ تقارنين نفسكِ بالناس، ولأجل منافسة بسيطة لم تستطيعي الفوز فيها انتهت الدُنيا بالنسبة لكِ، ألا يكفي هذا لكي تكوني حمقاء؟

أروى: لكنني حقًّا بذلت جهدًا كبيرًا، وفي النهاية لم أستطع الوصول إلى شيء، ألا يكفي هذا لأحزن؟ إني أستحق.

آيات: لا يكفي هذا لتحزني، لمَ تحزنين من الأساس؟ حسنًا، ربما بذلتِ الكثير من الجهد وحاولتِ، لكن قدرُكِ لم يكن الفوز، بل كان قدر شخص آخر، وهذا الجهد الذي بذلتيه لم يذهب بلا فائدة، إنك اكتسبتِ علمًا زائدًا، وخبرة زائدة، وأراد الله أن يُخبئ لكِ نتيجة هذا الجهد في شيء أكثر نفعًا لكِ، فلمَ السخط على أقدار الله؟ ولمَ لا نسعد لغيرنا حتى يُسعدنا الله؟

عندما عدت إلى المنزل وتفكّرت في حديثها شعرت بالغضب تجاه نفسي، كانت محقة في كل شيء، إنني تذكرت قول أمي لي إن السعي مفتاح الأخذ، ونسيت قولها إنّه لن يفتح جميع الأبواب!

مرّت الأيام يومًا بعد يوم، وكُنت أفهم الحياة بصورة جديدة كل يوم، فهمت الكثير مِما كنت أجهله سابقًا، وضعت أهدافًا لنفسي، حاولت الوصول إليها، عرفت معنى العيش وغرضه، لكن مع كثرة المسئوليات التي كُلّفت بها، ولأنني لم أعش هذا من قبل، واجهتني معضلة لم أستطع حلّها، فقد كان وقتي كله للعمل، لم أعد أستطيع إعطاء نفسي أو الأشخاص من حولي حقهم، لم أكن أستطيع تكريس وقت للتنمية من أفكاري ومعتقداتي خارج العمل، أتذكر يومًا استيقظت فيه على رسالة أُرسلت لي تخبرني أنني رسبت في مرحلة التخرج من كورس متعلق بدراسة جامعتي، في الواقع كان أمرًا متوقعًا، فلم أستطع أن أهتم به كما يجب، لم أجد الوقت.

كذلك أتذكر يوم مرضتْ صديقتي في الورشة مرضًا شديدًا، ودخلت المشفى لتقوم بإحدى أصعب العمليات، حينها أردت للغاية أن أذهب لأكون بجانبها، لكنني لم أستطع لكثرة مشاغلي.

لم أكن أعلم أنني سأواجه مِثل تلك المُشكلة، كيف يمكنني أن أزنَ بين مسئولياتي؟ ظللت أبحث عن الإجابة أشهرًا عديدة، فقدت الكثير مِمَن حولي ومما حولي لأنني لم أستطع إعطاءهم حقهم، لكن يومًا ما استطعت أن أصل إلى الإجابة، فهمت مؤخرًا أن الحياة هي معركة كل إنسان، هُناك مَن اختار خوضها، وهناك مَن استسلم، فأما مَن اختار القتال، يلاقي في طريقه عقبات لا نهاية لها، فالمشاغل لن تنتهي يومًا، بل على العكس؛ المسئوليات تزداد بمرور الوقت، لكن جميعها مسئوليات، جميعها يجب أن نُتمّها وأن نوازن بينها لأننا سنُسأل عنها، لكننا لا يجب أن نقتل أنفسنا مِن أجل أن نفعل هذا، فأتذكر أيامًا كُنت أُرهق فيها نفسي بشدة كي أُتم العمل، أحيانًا أمرض، وأحيانًا لا أنام، وأحيانًا أُهمل نفسي ومَن حولي ظنًا مني أن هذا هو الطريق للسعي، وأن هذا واجبٌ عليّ، لم أكن أفهم معنى التوازن، لكنني فهمت الآن.

اليوم هو اليوم المُنتظر، سأقوم بتقديم تصميمي الذي عملت عليه شهرًا كاملًا، شيء ما بداخلي يخبرني أنني سأفوز تلك المرة.

وصلت الورشة، الوجوه شاحبة مِن حولي، الجميع أتى بتصميمه، لكن أعينهم تصرخ من حولي خائفة، رُبما لأن تلك المسابقة كانت مُختلفة بعض الشيء، فقد أرادت مِنا الأستاذة آيات تقديم أنفسنا في صورة تصميم نحن صانعوه.

حينما أخبرتنا هذا لم يستطع الكثير فهم ما تقصده، رُبما الآن أيضًا ما زال هُناك من لا يفهم، لكن أظنني فهمت. جاء دوري للعرض، تقدمت نحو غرفتها، أخرجت القميص مِن الحقيبة، وأريتها إياه، بدأت أقصّ عليها: تلك المُربعات المُلونة المصنوع منها القميص كانت في الأصل أقمشة مطبخ صغيرة، قبل بضعة أيام كانت هذه الأقمشة ذكرى سوداء لي، كُنت أرى احتراق أطرافها وأبكي، منذ أن جئت إلى تلك البلدة وأنا أُلقي اللوم على تلك الأقمشة، فقد كانت سبب كل شيء، فهي مَن بدأت الحريق، هي مَن أحرقت منزلنا، هي مَن أحرقت سريري، وغُرفتي، وملابسي، هي من أحرقت الحوائط والأبواب، هي مَن أيقظتني فجرًا وأنا أختنق، هي من كادت تقتلني، وهي من قتلت أبي، هي من سلبته مِني، هي مَن سلبت حياتي مِن بين يدي، هي من جعلتني أراه وهو مُمدد أمامي على الرصيف وأنا بملابس النوم أبكي وأتوسل إليه أن يفتح عينيه أرجوه ألا يتركني، رحيله يعني رحيل كل شيء، أنتَ كل شيء لي، لا تذهب.

كُنت أضع يدي فوق قلبه وأتوسل إليه ألا يتوقف، لكن قلبه أبَى أن يكمل في عمله بعد تلك اللحظة، توقف، وتوقفت معه حياتي، سافرت مضطرةً، سافرت فقط لكي أحقق لأبي حُلمه في أن أعمل في الخارج، ظلّ يجمع أموال سفري لسنوات، ووضعها في حساب بنكي مِن أجلي، ظل متمسكًا بي، مُتمسكًا بأمله، إنني أُدرك الآن، تلك الأقمشة أحزنتني كثيرًا، لكنها أيقظتني، سابقًا كانت محترقة ضعيفة متفرّقة، مُجرد ذكرى أراها فأبكي، أما الآن فقد استُخدمت كما يجب، الآن أنا أحرق ذكراهم بيدي لأبني ذكرى جديدة، الآن وقد حوّلت ذكرى فقداني كل شيء، إلى ذكرى بداية كل شيء.

بصمة قلم

قصة

الانحدار الذاتي

الكاتبة

إسراء فتحي

ندى عامر

رغبة الأحلام تكون بالعزم على كسر الشباك المقيدة
وليست بالتمني والإنخدار المطلق !
-الرسامة: منة الله جابر.

الانْحِدَارُ الذَّاتِيُّ

إسراء فتحي

تصحيح١: فاطمة عادل

في الساعة الحادية عشرة ليلًا قبل انتهاء يومي، أودّ أن أعترف أني قد اخترت الصمت من بعد رحيلك يا أبتِ، ودينةُ الحياة صفعتني بضيقها عليّ وبغلق فرصها في وجهي، تارةً بأكائد البشر وتارةً بالشفقة، من كل الأركان دهست على كل آمالي، والحجّة المعممة أنني أتعلم! حتى صار صغيرك عمران يتفق مع دوستويفسكي في عبارته: «حينما يكتمل وعي الإنسان وإدراكه للحياة، إما أن يعيش في صمت إلى الأبد، أو أن يصبح ثرثارًا في وجه كل شيء».

تركت هذا المنشور وأغلقت هاتفي.

عمران شاب في الثالثة والعشرين من عمره، ذو بشرة بيضاء وعينين خضراء اللون، نحيف القامة، أحبَّ العزلة بعد أن توفيت العائلة وقرر أن يعيش وحده في قرية رشيد في منزل مستأجَر في محافظة البحيرة، سعيه متنقل وغير ثابت، مؤهله الدراسي دبلوم بقسم فني، حاول أن يكمل تعليمه كالبطل الذي لا يُقهر، وبالنسبة له كانت محاولة ساذجة، ومن حينها أصبح يعمل أعمالًا حرة.

بعد دقائق من نشر ذاك المنشور تلقّيت مكالمة من مازن، لم أُجب عليه إلا بعد عشرات المحاولات، فهو شخص عنيد الطبع، لا يتركني أنا وحزني بمفردنا أبدًا.

مازن: ما دهاك يا صديقي الصدوق؟

عمران: ما دهاك أنت؟ لقد اقتحمت أفكاري وقلبتها رأسًا على عقب برنّاتك.

مازن: هكذا إذًا، أتريدني أن أترككما وشأنكما؟

عمران: نعم، إن كان يسعدك.

مازن: حسنًا، هيّا سأغلق.

إنه مازن علي صديق عمران، عمره خمسة وعشرون عامًا، قصير القامة قليلًا، لم يدرس لكنه شاب على خلق وناضج في الانضباط وسريع التعلم، اجتماعي ومشاكس بعض الشيء حسب طبيعة عمله في مقهى قريب من منزل عمران، وقد تعرف عليه عندما وصل إلى القرية منذ عشرة أعوام، ومنذ تلك اللحظة وهو يساعده ويلتقيان معًا من وقت إلى آخر.

عمران: لقد أغلق الهاتف في وجهي! سأريك عندما نلتقي، وها أنا ذا أخيرًا سأُكمل اعترافي لزميلي المكتب مع ورقاتي تلك، لن يراها أحد كالبقية: الولد الذي تركته في عمر الثالثة عشرة وعيناه كانتا مليئتين بالمرح، ويتطاير من السعادة أمامك، ويوبخك كونك كنت كاتبًا صحفيًّا، فقال لك: «سأصبح مترجمًا وأترجم كل المقالات التي تكتبها»، وها أنا ذا الآن أصبح لدي بعض الرسومات وأصبح لدي موهبة الكتابة وكتبت كتابين، لم يرهما أحد قط حتى مازن، هو فقط يعلم أنني ألفتهما، ومع ذلك فالطفل الآن عيناه سوداوان تائهتان تبحثان عنك في كل الأركان، قلبه منهج لا يقدر على فعل شيء، ربما يتهرب من الحقيقة الصادمة التي تركتها له: «ألست حقًا ابنك؟ إذًا مَن أنا؟!».

انتهى من شروده على رنات مازن مرة أخرى، فأخذ نفسًا عميقًا كي يستطيع أن يجيبه بعد الحرب التي نشبها بين كونه الابن المُتبنى وأقلامه، ثم أجابه قائلًا: لا تقلق، أنا بخير.

مازن: انظر من الشرفة.

عمران: أحقًا أنت هنا؟ وماذا بعد؟

مازن: هيّا لنشرب كوب قهوة معًا في مقهاي.

عمران: لا.. لا أريد، وليس وقته.

مازن: كلا، سنفعل. لا تحاول منعي هذه المرة وإلا صعدت إليك.

أغلق عمران الهاتف وهو يقول: مجنون وقد يفعلها. نزل إليه مسرعًا، وألقيا على بعضهما التحية.

مازن: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا صديق، أكان يجب أن أهددك؟

عمران: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، لا تفرح كثيرًا لأني لن أذهب معك.

مازن: ما دهاك هذه المرة حتى ترفض شراب قهوتك المفضلة اللذيذة التي أصنعها بيدي؟

عمران: ...

مازن: عذرًا، لا مزاح، هيا لنتمشى قليلًا ولتحكي لي.

عمران: ماذا أحكي لك؟ لا يوجد قصص أو أحوال جديدة، أنا كما أنا.

مازن: أنا معك منذ عشرة أعوام وتجاوبني بهذه اللهجة؟ يا رجل ألست أخًا لك؟!

عمران تبسم له قائلًا: وأخ عزيز أيضًا.

بدأ يفكر مازن بينه وبين ذاته ويقول: أعلم ما بك وفي كل مرة كنت أسايرك، لكن ليس هذه المرة. ثم انتهى قائلًا له: دقيقة دقيقة.. عمران، هل كتبت تلك الكلمات مرة أخرى؟

عمران: نعم، ولكن كيف عرفت؟ على أية حال اهدأ، أنا بخير.

مازن: أنت تكتب هذه الرسالة للمرة العشرين وتكون بنفس تلك الحالة، ثم تقول لي إنك بخير؟ لماذا وما الأساس في كتابتها؟ هل سنُعيد هذه الدائرة مرة أخرى؟

عمران: تلك الدائرة هي التي تلتفّ حول عنقي يا مازن، ولعلّي أجد الجواب.

مازن: سيأتي، ولكن ليس بتكرار كتابة تلك الرسالة عدة مرات، ولا بوقف الحال، أنت لديك مواهب وتدفنها...

قاطعه عمران قائلًا: أعلم ما ستقول، لكن ليس بيدي شيء، ماذا يعني أني جئت كضيف مع عائلة وعمري كان سنتين وظننت أنني ولدت بينهم، وبغتة تذهب التي بمنزلة أمي، ثم أبي، ثم أكتشف فجأة أنهما ليسا والداي وعليّ أن أصدقه وأنا في عمر الثالثة عشرة، ويحتلّني مرض الاكتئاب، وأتعالج، وتشفق علي عائلة غير عائلتي، وذاك لأعيش معهم، ثم أضطر للنهوض كي أدرس وأعمل في ذات الوقت، ثم ماذا؟! ثم تركت الدراسة بأكملها وأتيت إلى هذه البلدة بعيدًا عن نظرات الشفقة، ولكي أبحث هنا وهناك عن عمل يناسبني وأُقبل لشكلي اللائق المختلف، يمرّ يومان ثم أُطرد لأني أظلّ أتخيل أو أكون صامتًا طوال الوقت، أعمل يومًا واليوم الآخر لا، ما ذنبي أنني أهرب بخيالي للرسم والكتابة، هل عليّ تركهما أيضًا مثلما تخلى عني الجميع؟ وأنت مثلهم، هم يقولون إن سعيي متنقل، وها أنت ذا تقول وقف الحال.

مازن: من فضلك أخي، اهدأ أنا هنا، تعالَ.

أخذه مازن وضمه إليه، وصار يُربّت على كتفيه وهو يتأسف عما قال.

عمران: أريد أن أصرخ في وجه العالم بأكمله، لكن حتى هذا أخشى من فعله!

وفجأة صمت مازن وبدأ يتلو عليه هذه الآيات القرآنية، ليسكن الاطمئنان قلبه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

اذكر الله في قلبك، وكن مطمئنًّا، فأنت في معيّته.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

لطيف خبير يا أخي، ويعلم ما بك.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

سينتشلك من الغيوم المظلمة، ويُنير بصيرتك بنور مشرق بإذنه وحده، فقط ردد وقل هذا الذكر كما فعل سيدنا يونس عليه السلام.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

كيف ظنك به؟ هيا قم وتفاءل خيرًا، تالله أنا لا أقصد ما فهمته أنت، بل أردت أن أُرشدك بأن تسير إلى الأمام، وتحقق الحلم الذي كنت تردده مع عمي دومًا، صحيح أنه لم يكن أباك، ومع ذلك فتربيته لك كانت صالحة؛ علّمك القوة، وكيف تنهض في أزماتك، وكيف لا تكون متواكلًا وألا تعتمد على الآخرين أو شيء يقف أمامك، كنت تحكي لي مرارًا عن موقف عمي وكلمته لك وهو يشير من قلبه بإصبعه السبابة إلى قلبك ويقول: «عُمير، إن نظرت إلى الخلف والأمام بخوف، فستسقط حتمًا، فهذا أشبه بالموت»، أليس أنت من حكى لي هذا، فماذا حدث؟

مازن: نعم، ظننته موقفًا عابرًا، لكنه كان يقصدني بها، هذه جملة تحذيرية وليست نصيحة أبوية.

عمران: بلى، وتُسمى نصيحة العمر، والأهم أنك مَن عاش هذه اللحظات مع شخص اعتبرك ابنه، وأُراهنك على أنه كان أكثر من ذلك، منحك كل هذا الودّ والمحبة، فعُد إلى رشدك وتذكر حديث الصحفي الأديب يحيى المهندس وازرعه في ثمرة أفعالك، وأكمل مسيرته. هل أصارحك بشيء؟

عمران: قل.

مازن: دائمًا أراك تتحدث عن الأحلام، لكن الواقع فلا، وكأنك تراه فقط على بعد الأمتار وتخشى القرب منه، وعلى سبيل المثال الكتب التي ألفتها، لماذا لا ترسلها للطباعة وتنشرها؟ أتذكر أنك أخبرتني بموهبتك الفنية ورغم ذلك لم تُطلعني على تلك الرسومات قط، لكني أثق أنها في قمة الروعة مثل إبداع حروفك. متأكد يا أخي أن المشكلة ليست في المال فقط، أليس كذلك؟

عمران: بلى، منذ علمت حقيقتي أصبحت أنظر إلى الحياة كأني غريب وليس لدي الحق في العيش فيها.

مازن: أنتَ مخطئ تمامًا بهذه الوسواس، بالفعل نحن كلنا هنا غرباء يا صديقي، والملك لله وحده، لكنه أعطانا فرصة واحدة لنطيعه، ونعمل، ونعمّر هذه الأرض فيما يحبه ويرضاه، فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، هكذا قال ربك، لم نُخلق عبثًا يا عُمير، ما دهاك؟ اسمك دليلك، ويقول لك: عَمِّر، ابنِ، اصنع كيانك الخاص.

عمران: ربما.

مازن: وماذا بعد؟

عمران: تعلم أني أحاول.

مازن: وعلى ذكر المحاولات، ذكرتني بأن العبارة التي نشرتها لدوستويفسكي عن الإدراك هي حقيقية، ولكن لا تنطبق عليك، فأنت لم تصل بعد إلى إدراك أحلامك بذاتها، وكل ما أنت فيه مجرد رغبات وهمية، ومع هذا فأنت بطل.

عمران: كيف أكون بطلًا بعد كل هذا؟

مازن: قد جاوبت نفسك، «بطل بعد كل هذا»، بطل رغم كل ما حدث معك، ما زال بك ثغرة الإنصات إليّ، وهذا سبب عليه أن يلهمك ويدفعك للنهوض مجددًا، أرى هذا في عينيك، إنما أكرر عليك السبب، ليس كافيًا دون انطلاقة حقيقية فعلية منك، وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾.

عمران: من أين تعلمت كل هذا؟ لوهلة صدقت أنك كاتب، أو فيلسوف، أو حكيم يقف أمامي.

مازن: أتعبتني يا رجل! إن كنت مهتمًا وجئت عندي في المقهى، لعلمت أن أغلب زبائني فلاسفة وما شابه.

عمران: حسنًا حسنًا، لا تحزن، تعرف أني لا أستطيع أن أعبّر لك عن شيء، فلا أُجيد فنون الرد، وعلى أية حال شكرًا لك لأنك معي وتحملتني.

مازن: لا عليك، الشكر لله يا صديق، وإن كنت تريد شكري حقًّا حقق حلم عمي، وكفاك اختفاء، وكما قال دوستويفسكي: «كن مختلفًا ولو صِرت وحيدًا».

عمران: أريد أن أذهب إلى البيت؛ غرفتي تناديني.

مازن: حقًّا لا جدوى منك. حسنًا هيّا، إلى اللقاء.

عمران: سأُبهرك لا تقلق، إلى اللقاء.

وصل عمران منزله ودخل غرفته، ووقف أمام المرآة ونظر إلى صورة والده، وضحك متعجبًا، ثم أخذها وضمها إليه بقوة، وطفأ ضوء الغرفة واستلقى مستسلمًا على فراشه دون أن يبدّل ملابسه، وظل يفكر في الحوار الذي حدث وهو نادم على تلك الحالة التي وصل إليها، وبدأ يحدث نفسه: مازن معه حق، أدّعي أن الدائرة تلتف حولي وهي من الأساس متوقفة ولا تتحرك ساكنة، حتى المجتمع معه حق، يا لساذجتي، ماذا كنت تظن يا عمران؟ أنك أدركت الحياة وفعلت كل شيء وتخطيت أبواب المستحيلات؟ الحقيقة أنك صفر! ها هي ذي وسادتي تبللت وقلبي ما زال ينزف.

ثم نظر إلى صورة والده، وأكمل: الحيطان أشبه بالتصدع من صوت بكائي عليك يا أبتِ، فليتك معي كي أهدئهم. الغريب أني أناشدك أنت أكثر من مناشدتي عائلتي الحقيقية، فأنا لم أحاول البحث عنهم قط، صدق مازن، فلا فائدة. ثم صمت لدقائق وقال: لكن أعدك أني سأحاول أن أغيّر مجرى تلك الدائرة تمامًا وأجعلها تدور وهي مشتعلة بنضالي، نعم.. عُمير.

قالها بشكل مختلف بعد انهيار وشيك، وهذا المخيف، ثم فتح هاتفه وترك رسالة لشخص ما: «دبّر لي تذكرة سفر في أسرع وقت، فلم يعد باليد حيلة لأكمل هكذا، فأنا أحتاج إليك».

أجابه وقال: حسنًا، ولكن ما الأمر، هل أنت بخير؟ أأتصل بك؟

عمران: لا، فأنا منهك الآن ولن أستطيع أن أجيبك، المهم أن تفعل ما قلته، وعندما آتي سأعطيك ما يلزم من الأجوبة.

كما تشاء، قد تم الأمر، موعد الطائرة في الخامسة عصرًا.

عمران: شكرًا لك.

وبعد لحظات من الصمت كان يردد الباقيات الصالحات، وبغتة نهض مهرولًا إلى مكتبه وقد دوّن حروفًا ما على غير العادة، ثم قال: سأبهرك يا مازن والجميع أيضًا، وقام وجهّز كل شيء يحتاجه من أجل السفر.

(في اليوم التالي).

مازن وهو يفتح باب المقهى رأى رسالة على الأرض، تقول: «أنا ذاهب إلى أفغانستان، وقبل هذا لدي مقابلة مهمة ثم أنطلق، قد تُقطع أخباري، لكن لا تقلق سأكون مختلفًا ثم سأعود إليك، الدعاء وصية بيننا، من صديقك عُمير».

تبسم قائلًا: لتعد سالمًا، أخي.

وبعد ستة أشهر كان عمران يرتدي بدلة أنيقة ومعه بطاقتا دعوة متجهًا وذاهبًا إلى المقهى ليقابل مازن، عمران: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا صديقي الصدوق.

مازن: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يا الله! حمدًا لله على سلامتك يا أخي، اشتقت إليك كثيرًا، ما دهاك يا صديقي؟ هل زفافك اليوم وجئت كي تدعوني إليه؟ لا تقلق أنا مدعو دون بطاقة.

عمران: يا هذا، لن تتغير أبدًا! ليس زفافي إنما حفلة صغيرة. أما عن السبب، فتعالَ من أجل إخبارك به.

مازن: عمران، هل أنت بخير؟ أرني، هل تشكو من ألم صداع أو شيء؟ ماذا صنعت لك أفغانستان؟ فأنت لا تحب المفاجآت، واليوم ستفاجئنا وأمام الجميع.

عمران: إنها أقدار يا عزيزي، والفضل لك ولدعواتك بعد معية الله سبحانه وتعالى.

مازن: ونعم بالله، صدقت، كل التوفيق والسداد لك.

عمران: سلمت أخي، موعد الحفلة غدًا يوم الجمعة بعد صلاة العشاء مباشرة، والمكان مدوّن في البطاقة لديك، وبالتأكيد أنت أول المدعوين وستكون معي في الحفلة، لا تنسَ.

مازن: حسنًا، إذًا لمن هذه الدعوة الأخرى؟

عمران: ها.. لا، هذه لأحد آخر ستراه في الحفلة، الأهم أن تكون مستعدًا.

مازن: لا تقلق، سآتي إن شاء الله.

عمران: إن شاء الله. اتفقنا، إلى اللقاء.

مازن: إلى اللقاء.

يوم الجمعة مساءً قد وصل مازن إلى مكان الحفلة وسأل أحد الموظفين: أين حفلة عمران؟

الموظف: عمران مَن؟

مازن: عذرًا، اسمه عمران يحيى.

الموظف: تقصد الكاتب الصحفيّ، هذا اسم شهرته، بالتأكيد أنت صديقه مازن، أليس كذلك؟

مازن يهمس في سرّه: كاتب وصحفيّ؟ اسم شهرة؟ يبدو أن الفتى فعلها! ثم أجاب عليه بفخر: نعم أنا صديقه الصدوق، كيف عرفت؟ وأين هو الآن؟

الموظف: أخبرني أنك الوحيد الذي ستذكر هذا الاسم. من هنا تفضل، وقد أوصاني أستاذ عمران أن أوصلك بنفسي، وترك هذا الظرف معي ويقول لك: اقرأها حتى أتي لأبهرك بعُمير الجديد.

أخذ مازن الظرف وهو مبتسم، ثم دخل مع الموظف وشاهد براعة الحفلة، وألوانها البراقة، وأيضًا يوجد أناس كثر وأغلبهم من أفغانستان. كانت هناك فقرات لقرّاء ومنشدين وشعراء، وها قد وصل إلى أول مقعد وتفاجأ

بأن اسمه مكتوب على الكرسي: (مازن صديقي الصدوق). جلس عليه وبدأ يفتح الظرف، كان الظرف من الخارج مكتوب عليه «طيرٌ يراسلك»، ثم بدأ القراءة: نعم أصحبت كطير يا مازن، حر من العزلة والاختباء وراء الخيال، والأهم أنه قبل سفري اتصل محامي العم يحيى والتقينا، وهذا ما دار بيننا.

(استرجاع).

_ السلام عليكم أستاذ عمران، أخيرًا وصلت إليك.

= وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، مَن معي؟

_ أنا فريد حمدان، محامي والدك يحيى.

عمران تذكر الجواب الأخير ثم أجابه قائلًا: مع حضرتك تفضل، ماذا حدث؟ هل كنت تبحث عني؟

المحامي فريد: نعم، منذ عشرة أعوام كان آخر لقاء بيننا، وقلت إنك وصية صديقي يحيى ولا بد أن أهتم بك، ومن حينها وأنت على عاتقي، لكن حدثت معي ظروف طارئة وسافرت، وعندما عدت أخبروني قرار استقرارك بمفردك ولا يعلمون مكانك، ولم أرك مجددًا. أما اليوم، اتصل بي من المطار بعض الزملاء وأخبروني أن اسمك موجود في قائمة السفر، وأخذت رقمك من صديقك الذي في الخارج.

عمران: صحيح، جواز السفر الذي استخرجه لي أبي قبل وفاته كان باسم شهادة ميلاده هو، عمران يحيى المهندس.

المحامي فريد: صحيح، على كل حال أردت أن أُكمل لك القصة وعليك أن تستمع إليّ قبل سفرك، فلدي موضوع مهم وأوراق تخصك بالتحديد.

عمران: حسنًا، أعطني العنوان وسآتي، فلا تذهب.

المحامي فريد: سأرسله لك، وأنا في انتظارك.

(بعد نصف الساعة كان اللقاء).

المحامي فريد: أمستعد؟

عمران: تفضل.

المحامي فريد: صديقي يحيى لم يشأ الله له الإنجاب، لذا تبناك من الملجأ وأنت في عمر سنتين، ولم نكن نعلم معلومات عن عائلتك في ذلك الحين سوى أن صاحب الملجأ قال لنا: الطفل قد تُرك على الباب منذ سنة ونصف، وكان معه هذا الجواب ولا نعلم من هو، لكن الذي علمته من الجواب أن ظروفهم غير مناسبة لتربيته.

صديقي كان دومًا يريد إخبارك، فهو أحبك كثيرًا ولم يرد خداعك، اعلم هذا، أنا الذي كنت أمنعه مراعاةً لسن طفولتك وأضطُررت أن أُأجل ذلك الأمر، فسامحني، أما هو فقد كتب ذلك في الجواب الذي أعطيتك إياه.

عمران: وعائلتي، ألم تعلم عنها شيئًا؟

المحامي فريد: هذا الذي جعلني أتصل بك، تفضل هذه الأوراق الصحيحة لحياتك الجديدة: عمران وصفي مالك، ووالدتك السيدة سلمى عمران، نعم.. سُميت على اسم جدك.

عمران: لا أريد أسماء، أسألك أين هم؟

المحامي: تمهل سأخبرك. عندما توفي صديقي يحيى، قمت بالبحث عن صاحب الملجأ بعد أن أُغلِق، وعندما وصلت إليه قال لي إن والدتك عادت إليه وبحثت عنك بعد سبع سنوات، ومع الأسف بعد أن تُبنيت أنت نُقلنا إلى محافظة أخرى، لكني تابعت مع صاحب الملجأ حتى التقيت بوالدتك، وها هي ذي، تفضلي بالدخول يا أم عمران.

(عودة).

وبالفعل يا صديقي في ليلة وضحها التقيت بأمي، وكما قال دوستويفسكي: «المهم هو تحطيم الألم، المهم هو إيقاف تقدمه». وهذا ما فعلته، ثم بدأت رحلتي كاتبًا بمساعدة الدكتور النفسي سهيل والمحامي فريد حمدان، هذه أول الاعترافات، هناك بقية.

من صديقك الصدوق عُمير بن وصفي مالك.

انتهى مازن من القراءة ثم تفاجأ بسيدة محجبة عمرها يبدو أنه في أواخر الخمسينات، جالسة بجانبه واسم الكرسي: (سلمى عمران)، نظر إليها مازن وكأنه غير مصدق ولا يعلم ما يقول أو كيف يبدأ الحديث معها، فنظرت هي إليه وقالت: كما وصفك بني بأنك طفولي وحساس المشاعر. اهدأ، أنا هنا منذ قليل، لكني التزمت الصمت حتى تنتهي من قراءة الجواب.

صمت مازن للحظات وتذكّر حديث عمران وما عاشه سابقًا.

مازن: كنت مبهورًا ومصدومًا، لكني الآن أصبحت بخير.

جاء صوت عمران من الخلف: إذًا، قد نجحت في إبهارك.

مازن: آه منك يا رجل! أريد ضربك بقوة.

عمران: لا، ستغير رأيك عندما تشاهد هذا، انظر.

من الطرف الأيمن على المسرح كانت الستائر ترتفع ببطء لتظهر أول لوحة مجمعة لأربعة أغلفة كتب منسوبة لاسم عمران وصفي مالك، ومن الطرف الأيسر أيضًا كان به بعض اللوحات والرسومات.

عندما رأى مازن هذا حاول أن يرجع نظره إلى عمران لكنه لم يره بجانبه، وها قد جاء صوته من منبر القاعة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سلام الله عليكم وعلى قلوبكم، معكم عمران وصفي مالك الشهير عمران يحيى.

Peace and blessings to you, peace and blessings to you and your hearts. With you Imran Wasfi Malik, also known as Imran Yahya.

حسنًا، فلنكمل حديثنا بلغة القرآن قبل أن تكون لغة الأم. عشت مع الكاتب الصحفي الأديب يحيى المهندس اثني عشر عامًا...

صار عمران يحكي للجميع قصته مع والده المُتبنِّي وكيف التقى بوالدته، وعندما انتهى صفق له كل من في القاعة وتعالت الصفافير الشبابية، ثم سأله أحد الصحفيين: رحمه الله الكاتب يحيى، نحن كان لدينا علم أن لديه ولد ولم نعلم أنه مُتبنٍّ، وبحثنا عنك بعد وفاته لكننا لم نصل إليك، واليوم تقول لنا تصريحات إنك سافرت إلى أفغانستان وعدت الآن، فماذا فعلت هناك؟ ومَن كان والدك الحقيقي؟ وهل علمت مكانه؟

صاح مازن قائلًا: مهلًا يا رفيق، تتوالى كل هذه الأسئلة كضربات الصاعقة ولا تترك له مجال الإجابة، والغريب أنك لم تسأله عن محتويات أعماله، رفقًا به.

_ صحيح ما يقوله مازن اتركوا الكاتب الصحفي والمترجم يشرح لنا القضية كاملة.

جاء هذا الصوت من خلف القاعة، فقال عمران: سهيل.

ماجد: عمران البطل.

عمران: أُعرّفكم على الدكتور سهيل زين، جندي من جنود الرحلة، وهو دكتور نفسي تعرفت عليه منذ وفاة أبي، وكان يتابعني عن بعد لبحوثه العملية في الخارج، وهو صاحب قرار أن أستقر بمفردي حتى أعتمد على نفسي، لم أنجح بشكل تام، لذا سافرت إليه في أفغانستان، ومن هناك أكملت رحلة علاجي وتطويري حتى وصلت إلى ما أنا عليه الآن بفضل الله أولًا، ثم هو وأمي، وبالتأكيد صديقي العزيز مازن، أما عن أبي الحقيقي، فقد تُوفي وأنا في عمر السابعة بظروف مرضية.

الصحفي: رحمهم الله، أعتذر عما قلته منذ قليل.

عمران: لا عليك، هل لدى أحد سؤال آخر قبل أن نتحدث عن الأعمال؟

أحدهم أشار إليه قائلًا: أردت أن أتعلم منك مجال الترجمة ولدي بعض الأسئلة، لكنني متردد قليلًا ولا أعلم إن كان هذا الطريق سيناسب أحوالي أم لا.

نظر مازن وعمران إلى بعضهما بابتسامة وقالا معًا: «إن نظرت إلى الخلف والأمام بخوف، فستسقط حتمًا، فهذا أشبه بالموت».

ثم أكمل عمران: هذه العبارة قالها لي أبي، لم أفهمها إلا عندما تعافيت ورأيت أن كل ما مضى كان شبيهًا بالموت، كنت شابًا ضعيف الحيلة لأنني نظرت إلى الخلف والماضي، وانتظرت هكذا بلا جدوى، وعندما كنت أنظر إلى الأمام كنت أنظر إليه بخوف، لأني صدّقت أني غريب ولا مكان ولا قيمة لي في الحياة، لذا سأسألك، هل تريد الإجابة حقًا؟

أجابه المتسائل: نعم.

عمران: إذًا عليك أن تعلم ما وراء حقيقة ترددك حتى تعالجه. ولكن، ما اسمك أولًا؟

رد قائلًا: نبيل.

عمران: عاش اسمك يا صديق. حسنًا، قل لي لماذا هذا بالذات؟

نبيل: لا أفهم قصدك بـ«لماذا؟».

عمران: تفضّل اجلس وسأوضح. مثلًا، لماذا وقع عليّ اختيار مجال الترجمة؟ في البداية لأنها كانت غاية أبي وأريد أن أحققها، ممتع لكن السبب لم يكن كافيًا لدراسة الأمر وتحقيقه، عملت على تكبير تلك الغاية بِجِد حتى إن سقطت تلك الغاية تصيح بي كما صاح مازن منذ قليل عندما أحس أنني مرتبك، ولأني صديقه لا يريد أن يمسّني أحدهم بكلمة ما. هكذا تفعل الغاية بنا، لذا علينا إدراكها جيدًا، وليس هذا فحسب، فالخط مستمر وليس له نهاية ولا وقت للبدء، بل بالاجتهاد تفعل وتصنع المعجزات، فأنا جاهدت وبحثت عن أهمية المجال وأساساته، ومن أهم النقاط قبل البدء:

- الأولى: إتقان لغتك الأساسية بعناية.

- الثانية: قبل اختيار أي لغة ثانية لإتقانها لا تقارنها بقيمتها في المجتمع وأيها أفضل أو أشهر من الأخرى، بل حددها حسب مرونتك وانجذابك إليها أكثر، كما يقولون: «المجالات فنون»، والفن يأتي من القلب.

وحقًّا أنا ما زلت في البداية، بالكاد وضعت قدمي على أول الطريق بتمكني من اللغة الإنجليزية.

نبيل: وما النقاط المهمة بعد تعلم أساسات المجال؟

عمران: بعد إجادة لغتين أو أكثر، تستطيع أن تحصل على فرصة عمل، وحينها يجب عليك:

- الالتزام بتسليم الأعمال بمواعيد نهائية، وهذا يتطلب منك دورة إدارة الذات.

- استيعاب المفاهيم الجديدة بسرعة، مثل المصطلحات التقنية.
- الكتابة بأسلوب واضح ودقيق، والإحاطة بقواعد النحو والصرف.
- أن تنتبه لأدق التفاصيل وأبرز المهارات المُشار إليها في إعلانات وظيفة المترجم.
- إجادة مهارات التكنولوجيا المرتبطة بالترجمة.
- أن تكون شخصًا ماهرًا في إنشاء العلاقات العامة والاجتماعية، وأن تكون مرنًا مع الزملاء وأعضاء العمل.
- أن تكون لنفسك ولغيرك بابًا للتحفيز الذاتي، واختصارًا لهذه النقطة، تعلق بالله والقرآن يأمن قلبك، وأمِّن قلوب الآخرين بالقول الحسن.

ولا شك في فترات الركود في العمل الحر، وفي الأساس ستكون فترات تدريبية وليست ركودًا بمشيئة الله، وكما اتفقنا، تكمن على حسب إدراكك للغاية.

أحدهم قال: حدثنا عن أعمالك الكتابية والفنية، وما دورك الصحفيّ فيهم؟

عمران: الأعمال الكتابية: الكتاب الأول والثاني عبارة عن يوميات قصصية للأطفال، ومحتواهما قصص عربية فصيحة دوّنتها قبل سفري، وهي مواقف عابرة بيني وبين أبي، لذا سميتهما بذات الاسم: أبو عمران.

الكتاب الثالث جمعت مقالاته الأخيرة بمساعدة العم فريد صديق والدي، وكل مقالة دونت أسفلها إرشادًا تعبيريًّا عن إبداعه ومضمونه حول الموضوع وما يتحدث عنه، وعندما تمكنت من اللغة الإنجليزية ترجمتها له، وسميته: (ثمرات الصحفي والأديب يحيى المهندس).

وعندما أرسلته للجريدة التي كان يعمل فيها، رحبوا بي كثيرًا، ولقّبوني به إهداءً وإكرامًا له ليس إلا.

الكتاب الرابع كان ونيسي في أفغانستان ودونت ما تعلمته فيها، لذا سميته: (عمير وصفي في أفغانستان).

أما الأعمال الفنية، فهذه تمهيدات خيالية بعض الشيء، حقًّا لا أستطيع وصف حقها، لكن ما سأقوله هو إنها إهداء لصديقي الصدوق مازن علِي ليضعها في مقهاه المفضل لدي. نسيت أن أخبركم أنه يصنع أفضل قهوة على الاطلاق، شكرًا لك يا صديقي الصدوق.

صعد مازن إليه قائلًا: هزمتني، قلت لي إنك لا تسطيع التعبير ولا تجيد فن الرد وما شابه، لكن ماذا أفعل أنا الآن بك؟

عمران: لا شيء، يكفي ما فعلته لي سابقًا، ومن على هذا المسرح أودّ أن أشكر أمي التي عادت من أجلي ولم تتخلَّ عني أبدًا، وعلى الخصوص المحامي فريد حمدان، والجنديّ الخفيّ دكتور سهيل، تحية لكم على فضلكم.

المحامي فريد: مبارك عليك بني، أذهلتنا حقًا بحصاد ثمرته والتي فاقت كل توقعاته وآماله.

عمران: الحمد لله، أسعدتني مرة أخرى بهذا القول.

ثم أكمل قائلًا:

لا تسأل متى تحدث الثمرة، فكل سعي هو ثمرة، فاستمتع بملذات سبلك.

Do not ask when the fruit will occur, every effort has a fruit, enjoy the pleasures of your paths.

شكرًا على حضوركم جميعًا، وشكرًا لكل شخص كان في يديه شيء ومنحني إياه حتى لو لم يكن من دمي، نعم.. شكرًا لأبي.

بصمة قلم

قصة

لم يفت.. فهناك متسع

الكاتبة

مروة سيد

حبيبة محمد

تتساقط سنون حياتنا كحبات الرمال
متتالية متعجلة الفناء
فأفق يا ابن آدم !!
Abc
E=mc²
123
12
9
3
6
- الرسامة: خديجة اسكندر.

لَمْ يَفُتْ.. فَهُنَاكَ مُتَّسَعٌ

مروة سيد

تصحيح١: روان ممدوح

أشرق الصُبح وانهالت أنواره كَبلورٍ انكسر الضوء بين ثناياه، وزقزق العصفور الوردي ذو الغُرةِ الحمراءِ، فاستيقظتُ على صدىٰ صوته الذي دوىٰ بالمكان.

هذه حور، فتاةٌ تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، طويلةُ القامةِ، نحيلةُ الجسدِ، بيضاءُ البشرة، ذات شعرٍ أسودَ طويلٍ مسترسلٍ على ظهرها، تسكنُ في قريةٍ صغيرةٍ يكاد يكون عدد سكانها لا يتجاوز عدد أفراد أسرةٍ واحدةٍ من الأسر الكبيرة، كانت هي الفتاة الوحيدة التي أكملت تعليمها وواصلت حتى اجتازت المرحلة الثانوية، فصارت مطمعًا لكل شابٍ في قريتها، فهي من حسناوات القرية، عِلاوة علىٰ ذلك هي الفتاة الوحيدة المتعلمة بينهنّ.

استيقظتْ وفتحتْ باب شرفتها وظلت جالسةً تحدّق في الشارع والناس حتىٰ غلبها الملل، فنهضت وغيرت ملابسها وخرجت إلىٰ الشارع تبحث عن والدها.

العم أيمن رجلٌ رقيقُ الحالِ، طيبُ الخلقِ، لَمْ يُرزق بأطفالٍ قط، فكانت حور بمنزلة ابنته، فهي الطفلةُ البكّاءةُ صغيرة الأنامل التي وجدها أمام المدرسة التي كان يعمل فيها. توفيت زوجته منذ أربعة عشر عامًا عندما كانت حور في الرابعة من عمرها، ومنذ ذلك اليوم تفرّغ لتربيتها، وأبىٰ الزواج من أخرىٰ. مُضطهَدٌ من أهلِ القريةِ جميعهم، لأنه رفض أن يُزوّج ابنته أحدًا من أبنائهم، كما أنهم ضيّقوا عليه سُبل عيشه حتى طُرد من عمله، فأصبح عاملًا للنظافةِ في القرية.

حور: السلام عليكم، هل رأى أحدكم والدي؟

أحد المارة: لا، ولكن يمكنني أن أدلّكِ على المكان الذي سمعت والدك يقول إنه ينوي الذهاب إليه.

- حسنًا، ما هو المكان؟

= ماذا؟

- ألم تقل لي الآن إنك تعرف المكان الذي نوىٰ أبي الذهاب إليه؟

= ماذا؟ أبوكِ؟ منذ متى أبوكِ؟! لا تنسي من أنتِ أيتها الحسناء.

- كتمت حور غيظها، فهي تعرف جيدًا أن أهل قريتها لن يفوتوا أي فرصةٍ لمضايقتها، فتركته ومشت وهي تدعو أن تجد والدها سالمًا، فكم من مرة وجدته ملقى على الأرض منهكًا من كمّ الأذى الذي ألحقه به أهل قريته.

وبينما كانت تتمشى في الشوارع أوقفها أحد الشّبان على حين غفلة، وحدّثها غاضبًا: لماذا لم تأتِ ليلة أمس؟ ألم أقل لكِ سابقًا إني سأكون بانتظارك؟ لقد فات الأوان وأُغلقت المنصات ولن تتمكني من التسجيل بالجامعة، لماذا يا حور؟ ألم يكن ذلك حلمك الذي لطالما حلمتِ به؟ لماذا تنازلتِ عن حلمكِ بهذه السهولة؟ لماذا يا حور؟

بمشاعر مضطربة ووجه محتقن بالدماء أجابت حور: لأنني لست قادرة على إكمال ما بدأته سابقًا؛ ضاقت بي السُبل يا باسم، ضاقت بي الأرض بما رحُبت، دعني وشأني، ما دهاك يا فتى؟ دعني وشأني!

أنهت حور كلامها واجهشت بالبكاء، فهي لَمْ تعد تحتمل كم هذا الضغط، انفجرت باكيةً وأخذت تركض حتىٰ وصلت إلى بحيرة تقع على أطراف قريتها.

تترقرق أمواج المياه الصغيرة كَحبات اللؤلؤ علىٰ ضِفاف البحيرة، والزُرقة غلبت الأجواء سماءً وأرضًا، ونسيم الهواء يتخلل الأنفاس، فيسري بشعيبات الصدر دابًّا فيها الحياة، ينحلُّ الضيق برؤية خضرة الشجر والأوراق، أجواءٌ غاية في الروعةِ اعتادت حور عليها منذ نعومة أظافرها، من أفضل الأماكن المفضلة لديها، فكم من ضيق أتت بهِ ومضت منفرجة الأسارير، فصُنع الله البديع قادرٌ بجماله أن يمحو كل دنيءٍ. جلست وأسندت رأسها إلى ركبتيها بعدما ضمتهما إلى صدرها، وانطوت على نفسها، أخذت تبكي وتبكي حتى أحسّت بأن قلبها وحرقته قد اغتسل بماء، أغمضت عينيها، وبدأت تحدّث نفسها: لقد سَئِمْت الحياة، لمْ يعد هناك ما يدفعني للعيش، توفيت والدتي وأنا ابنه الأربع سنوات، ولاقَ أبي ما لاقَ من تعذيب وضيق بسببي، أكلّ ذنبي أنني مختلفة؟! أريد أن أتعلم! أكلّ ذنبي أنني لا أريد الزواج من أحد شبان القرية الأغبياء؟! ما ذنبي أن يُحبني كل هؤلاء؟! وَمن أحببته لم يدقّ قلبه لي، لِمَ يا باسم؟! لِمَ يا حبيب الفؤاد؟! ليتك تعلم ما في قلبي.

ثم غفت.

غفت حور على شاطئ البحيرة، لم تشعر بشيء حولها سوىٰ صوت الأمواج الذي ازداد فجأة وكأنه يواسيها في مصابها، وشعرت بيد تهز كتفها برفق، وصوت حنون يأتي من خلفها ينادي باسمها.

العم أيمن: بُنيتي، لمَ تأخرتِ كل هذا الوقت؟

حور: ما.. ماذا؟ كم الساعة الآن يا أبي؟

- الرابعة عصرًا يا حبيبتي.

= أنا متعبة يا أبي، أريد أن أرتاح.

- حسنًا، لكن تناولي هذا الطعام أولًا قبل أن نغادر.

= لست جائعة.

- يا بنيتي، إني أعلم ما في قلبك، والله على ما أقول شهيد، فكل الحزن الذي لحقَ بكِ ذُقته أضعافًا بحزني عليكِ. يا فتاتي الصغيرة، لا تعلّقي قلبك بغير الله، فكل ما دون وجههِ تعالىٰ زائل، لا تكوني كَمن يشقى ويضيع مجهوده هباءً، إني أعلم حبك لصديقكِ باسم، وأعلم أنه لا يشغل بحبكِ بالًا. يا ابنتي العزيزة إنك فتاةٌ صالحةٌ فيكِ من الصفات الحسنةِ الكثير، اصطفاكِ الله من بين فتياتنا جمعاء، لا تُضيّعي عمرك هباءً، ألا تدركين أن سنةً من عمرك قد انقضت في اللا شيء؟! تجلسين وتبكين ولا تفعلين أي جديد. ثم سقطت دمعةٌ من عينهِ اليسرىٰ لم يستطع منعها، فترك ابنته ومضىٰ. لم تمكث كثيرًا في مكانها، فبعد بضع دقائق كانت تهرول راكضةً إلى منزلها الذي ما إن وصلت إليه كادت تسقطت من هول المفاجأة!

في منزل العم أيمن كان يجلس بسترته السوداء ذات الأكمام الواسعة وبنطاله البني، يُمسك بكوب الشاي وقد استحال باردًا، صامتٌ غافلٌ غير قادرٍ على قول كلمة واحدة، فالحزن كان مصابه بعدما اتخذ قراره النهائي بالهجرة، كم يحب العم أيمن! لم يرد أن يذهب قبل أن يودّعه.

باسم باضطراب: عمي أيمن، أريد أن أخبرك شيئًا، أعلم أنك ستحزن بسببه، فأنت بمنزلة أبٍ لي بعدما مات والديّ في حادث سيارة منذ عشرةِ أعوام، ولكنني لم أعد أحتمل الوحدةَ، لذا قررت أن أذهب.

كان العم أيمن صامتٌ لا يبدي أية ردةِ فعل، ملامحه جامدة كالحجر!

يكمل باسم حديثه: أعلم أنك لن تمنعني من الذهاب، ولكنني أعلم أنني حتى إن ذهبت فسأظل ولدك، وسأكون في حَضرتِك في أي وقت تحتاجني فيه.

فوجئ باسم بالعم أيمن يرتمي في حضنه وقد ترقرقت الدموع في عينيه، وحدّثه باكيًا: ولكن إلى أين يا ولدي؟ من لكَ حتى تُهاجر من أجله؟ أليس هنا منزلك وأبوك؟

بأسف رد باسم: إلى حبيبتي يا عمي.

بخطوات مثقلةٍ تجرّ قدميها حتى وصلت إلى المنزل، وما إن وصلت إلى الباب حتىٰ تناهىٰ إلى سمعها صوت حبيبها باسم، فابتسمت وارتوىٰ قلبها بعدما ظنّت أنه أتىٰ لخطبتها أو حتىٰ لمواساتها، ولكن الفرحة لم تدُم بعدما التقطت أذناها كلمات عن الهجرة، وحبيبته.. حبيبته! ذاك الأبله اللعين.

دخلت حور وألقت السلام، وقد عقدت النية ألا تلقى له بالًا، وقالت بجمود: لتصحبك السلامة يا رفيقي، ولكن لا تنسانا، ولا تنسَ أن تأتي إلينا بحبيبتك، ألسنا أهلك!

انصرف باسم، ومع فجر اليوم الجديد شدّ الرحال إلى بلدة النوبة حيث تسكن حبيبته وانقطعت أخباره عن القرية، فلم يعد يتواصل مع أحد، ولا تعلم حور أقرر باسم الهجرة أم أن حبيبته اللعينة هي من منعته عنها.

مرت الأعوام متتاليةً، وحور من سيءٍ إلى أسوأ، بدأت تهمل في كل شيء، كل شيء بالمعنىٰ الحرفي، صلاتها وأورادها، وواجباتها بالمنزل، وعلاقتها بالناس، وأكلها، حتى صحتها أهملتها، لم تعد حور تلك الفتاة النابغة الجميلة مطمع شباب القرية، أصبحت امرأةً سمينة قبيحة الهيئة غير مهندمة، فقد تجاوز عمرها التاسعة والعشرين!

أحد عشر عامًا كانت كفيلةً بتغيير كل شيء، أصبحت حور وحيدة، فقد لقي العم أيمن حتفه جراء الاعتداء عليه من أحد شبّان القرية الأغنياء بعدما رفض عرضه بالزواج من حور، وفي ليلةٍ من ليالي الشتاء الباردة، كانت تجلس حور ملتفّةً بالغطاء الثقيل تتصفح الإنترنت، حتىٰ وجدت إعلانًا عن جامعات خاصة تقبل المتقدمين في العمر للالتحاق بها ممن اجتازوا المرحلة الثانوية، هبّت من مجلسها واقفةً وبدأت بالبحث عن أي أوراق تخص تعليمها، وفي صباح اليوم التالي اتجهت إلى إحدىٰ الجامعات قاطعةً حدود قريتها، وهناك استقبلها الجميع بترحابٍ شديد، وقدمت أوراقها وانتظرت نتيجة التنسيق الخاصة بالجامعة، لكن العميد أخبرها أن النتيجة قد تتأخر إلى أسبوع من يوم التقديم.

عادت حور إلى منزلها وكلها يقين أن الله سيكرمها، فكم صبرت واحتسبت أجرها عند الله! توضأت وصلت ركعتي الحاجة، دعت وبكت حتى غفت على سجادة الصلاة ولم تستيقظ إلا في الصباح التالي، استيقظت على صوت زقزقةٍ عالية، فأسرعت إلى شرفتها، كان هناك عش صغير مليء بالعصافير الصغيرة ذات الغرة الحمراء!

ضحكت، ضحكت حور كما لم تضحك من قبل، انفرجت أساريرها وهبت في روحها لمعةُ أمل واتخذت قرارها بالهجرة، فمن لها حتى تبقى في هذه القرية بعد اليوم؟

اتجهت إلى عائلة في حالة لا بأس بها من الثراء وعرضت عليهم بيع بيتها، وبعد مفاوضات كثيرة ومناوشات أكثر، تمكنت من بيع بيتها بقدر من المال يُمكّنها من شراء منزلٍ جديدٍ صغير، وسيارة تساعدها علىٰ الترحال. أنهت إجراءات البيع ثم حزمت أمتعتها وتحركت نحو المدينة الجديدة، أو دعنا نقول حياتها الجديدة!

مكثت في المدينة أحد عشر يومًا حتىٰ صدرت النتيجة النهائية، لم تكن تدري أن نصيبها من الهناء قادم، فقد وافقت إدارة الكلية على انضمامها، وفي اليوم التالي اتجهت إلى مقر الجامعة لتعرف أي كلية ستلتحق بها، وبعد انتظار دام ثلاث ساعاتٍ، أبلغها أحد المسئولين أن مجموعها قد تناسب مع كليتيّ الحقوق والتربية الرياضية، وعليها أن تختار إحداهما، بعد تفكير لثوانٍ معدودة اتخذت قرارها بالالتحاق بكلية الحقوق.

شارع فيه من الأزهار والشجر ما يكفي لتنعم عيناها بأبهى المناظر الطبيعية، استحال لونه للأخضر الممزوج بألوان الطيف من تنوع الأزهار والشجيرات، تنفست الصعداء، أخيرًا بعد كبتٍ دام لسنين طويلة، آه من غفلة الإنسان وضياع حاله باتباعه وسوسة نفسه الشيطانية! تتراقص، بل تقفز فرحَةً بعدما انفتحت أمامها أبوابٌ بعدما ظنت أن الدنيا قد أحكمت عليها سجونها، ظلت تضحك وتردد:

«ضاقت فلما استحكمت حلقاتها، فُرجت وكنت أظنها لا تُفرج»

أتىٰ اليومُ الموعود، أول يوم في الدراسة، وقفتْ أمام المرآةِ تُهندمُ ملابسها وتشدها شدًّا على خصرها، فهي تريد أن تبدو جميلةً وفاتنةً كما عهدت سابقًا، ووضعت من المساحيق التجميليّةِ ما يكفي لتزيين عروسين في ليلة زفافهما. علىٰ الصعيد الآخر تجلس فتاة كَملاكٍ بريءٍ، تتزين بثوب السترة والعفة، تطايرت أطراف ثوبها كَجناحين من اللؤلؤ الأسود، لا تتوقف شفتاها عن الهمس بذكر الله تعالىٰ، كان من حظ حور الأعظم أن تتقابل معها مع أولىٰ خطواتها بالجامعة!

حور: أهلًا، أنا حور طالبة بالصف الأول.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلًا يا حور، لماذا لا تلقي عليَّ تحيتنا تحية الإسلام؟

حور: آسفة، فقد اعتدت على هذه الطريقة في تحية الناس.

ملاك: لا بأس، لا تعتذري. أعرّفك بنفسي، أنا ملاك، طالبة بالصف الثالث بكلية الحقوق.

= أنا أيضًا في الكلية ذاتها، هل لنا أن نصبح صديقتين؟

- على الرحب يا عزيزتي، لكن دعيني أذهب الآن، فقد حان وقت المحاضرة.

= حسنًا، إلى اللقاء.

- ملاك، يا لحسنها وطيب خلقها! اللهم إني أسألك صحبتها.

ظلت حور تفكر في الصديقة الجديدة، وكم أنها جميلة ومهذبة، وكم أن خلقها حسن وهيأتها أحسن، وتتمنىٰ أن تصبح رفيقتها المقربة، فقد نَوَتْ أن تتقرب إلى الله، وتشعر أن ملاك هي ملاذها الوحيد للخطىٰ نحو الالتزام.

بعد ذلك اليوم توالت اللقاءات بينهما، وأصبحت حور الصديقة المقربة لملاك، على الرغم من كبر سنها فإنها أحبت ملاك وشعرت أنها أختها الكبرى، ظلت جوارها تمشي علىٰ خطاها، ومع الوقت تمكنت ملاك من تغيير حور إلىٰ الأفضل؛ أصبحت تصلي بانتظام، وتذهب لدراسة العلوم الشرعية، أصبح لديها علاقات بالكثير من الصالحات، انتظمت في دراستها وكانت تحصد أعلى الدرجات، اجتازت السنة الأولى ثم الثانية فالثالثة، كم يفنىٰ العمر سريعًا والأعوام جارية! وفي يوم من أيام الصيف الحارةِ قررت ملاك أن تذهب لترى أخاها الذي يعمل قاضيًا في محكمة الجنايات، أمسكت هاتفها الشخصيّ لتطلب من حور أن ترافقها إلى المحكمة، على الفور وافقت حور، فهي لا ترفض لملاك أي شيء.

بسرعة الضوء كانت تقف أمام المرآة تشد على ثوبها وتهندمه، ثم أسدلت خمارها الوردي الطويل فغطى من ملابسها ما غطىٰ حتىٰ أنه لم يعد يظهر منها شيء سوىٰ حذائها. كم تغيرت تلك الفتاة الطيبة، لم تضع أي مساحيق، فقد علِمت أن زينتها فتنةٌ تأثمُ عليها، ثم التقطت حقيبتها واتجهت نحو منزل رفيقتها ملاك.

بزيه الرسمي وشاربه الخفيف، يجلس متكئًا علىٰ كرسيّه يحدق في شاشة الحاسوب، وما إن طرقت ملاك الباب حتىٰ انتفض من مكانه وهبّ مسرعًا لاحتضانها، كم افتقد حبيبته المدللة! ظل يحدثها ويداعبها حتىٰ دخلت حور تنادي عليها، فلقد تأخر الوقت وتريد أن تذهب، تلاقت عيناها بعينيه البنيتين وظلت صامتة، فقد آن الأوان لأن يتحدث قلبها، شعرت بارتجافةٍ سريعة في صدرها لم تلقِ لها بالًا، فانصرفت من شدة ارتباكها، ومرّت الأيام تباعًا حتىٰ فوجئت بصديقتها ملاك تهاتفها وتخبرها أن أخاها ينوي خطبتها، انفرجت أساريرها وشعرت أن الله بلطفه يربطُ على قلبها ليمحو آلامًا لاقتها سابقًا، لم يمرّ شهران وكانت حور عروسًا في غاية الروعة والجمال.

«يظل الإنسان حاملًا أوجاعه مهما عوضته الأيام بسيلِ الأفراح!».

لمْ تنسَ حور قط ما حدث لأبيها، ولم تتقبل كونه مات قتيلًا على يد سفيهٍ أبله، فطلبت من زوجها أن تذهب إلى قريتها بحجةِ رؤية صديقاتها القدائم، لم تُردْ أن تخبره بالحقيقة خوفًا عليه من ردةِ فعله. وفي اليوم التالي اصطحبها زوجها إلى قريتها حيث مسقط رأسها، وهناك أخذت تُسلّم على الجميع وتسأل عنهم، ثم مكثت في منزل إحدىٰ صديقاتها القدائم لترتاح من شقاء الطريق، وبينما كانت تلتقط أنفاسها وصلها نبأ عظيم انشرح له صدرها.

صديقة حور: أعلمتِ بالذي جرىٰ؟

-لا، فمنذ ذهابي لم أتواصل مع أحد من أهل القرية.

= حسنًا.

- ماذا حدث؟ أخبريني.

= لا شيء، لا تشغلي بالك.

- أقسم عليك بالله أن تخبريني.

= أتتذكرين قاسمًا ابن مسئول القرية؟

- ومن ينساه؟! ذاك القاتل.

= لقد لاقىٰ من البلاء الكثير حتى صرنا نشفق عليه.

...-

= لقد توفي ولده برصاصة قاتلة من مسدسه، عندما كان يُنظّفه أطلق الزناد بالخطأ، فأصابت ولده الصغير، فمات صريعًا، لمْ يمر عامٌ وتوفيت زوجته بنوبة صرع شقت رقبتها شقًا من شدتها، وها هو ذا الآن يصارع الموت، لقد أصيب بالسرطان وأبلغه الأطباء أنه لن يعيش أكثر من شهرين بعد اليوم.

بكت حور، ليس حزنًا وإشفاقًا، بل عجبًا من عوض الله وعدله في شئون عباده، فهو العزيز المنتقم الجبار!

منذ ذلك اليوم لم تعُد تلتفت إلىٰ الماضي، وقررت أن تهتم بحياتها الجديدة وبمولودها الذي سيأتي إلى الدنيا بعد ثلاثةِ أشهر.

بصمة قلم

قصة

مُرَاوَغَةُ الإنصَاتِ

الكاتبة

إسراء علي

ندى عامر

لا تستسلم للأفعال الهزلية عبر مواقع التواصل الاجتماعي،
لأنها حتماً ستذهب عقولنا جميعاً . .
- الرسامة: منة الله جابر.

مُرَاوَغَةُ الإنْصَاتِ

إسراء علي

تصحيح١: هالة محمود

خبر عاجل: انتشرت في الآونة الأخيرة الكثير من المُعتقدات المختلفة كالسحر والدجل، وانتشرت هذه القصص بكثرة على السوشيال ميديا مع هذه الأشياء الغريبة.

كان هذا الخبر يُتداول عبر القنوات الإخبارية.

عندما كُنت في تحقيق صحفيّ لإحدى القضايا لفت نظري شخص غريب، فذهبتُ إليه وصُعقتُ من هيئة هذا الشخص، وعندما وقفت أمامه فرَّ هاربًا مني، وعندما سألت عنه عرفت أنهُ ليس من المدينة، وهو من قرية تُدعى محلّة بشر في شبراخيت في البحيرة، فعزمتُ على الذهاب إلى هذه القرية ومعرفة ما يدور حولها من أحاديث.

إنها وعد، فتاة تُحب البساطة في كل شيء، رقيقة المشاعر، ذات وجه بيضاوي، ترتسم على شفتيها الابتسامة ولا تغيب عنها، فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها، تعيش مع والدها ووالدتها، تُحب عملها بدرجة كبيرة، وتُجاهد كي تكون أكبر صحفية في البلدة.

أهلًا، أنا وعد.

مهنتي الأساسية هي العمل محققةً صحفيةً في أكبر مجَلّات المحافظة، وهذه صديقتي لورا، وهي مَن ستُرافقني في رحلتي.

لورا صديقة وعد منذ الطفولة، وهي فتاة رقيقة، نحيفة، يغلبُ على وجهها البراءة، فهي ذات وجه ملائكي.

تعيش مع والدتها بمفردهما بعد وفاة والداها في منزل صغير يملؤه الدفء والحنان.

وها قد بدأنا رحلتنا والقلق بدأ يدق في قلبينا معًا، ولم نذهب إلى هذه القرية إلا بعد معرفتنا التامة بها، مثلًا لماذا سُميت هذه القرية بهذا الاسم؟ وما الأشياء الغريبة التي تحدث فيها؟

بعد سفر مدته خمس ساعات إلى القرية، وكلما سألنا الناس عن الطريق إلى القرية نظروا إلينا بفزع شديد ويفرون من أمامنا، دخلنا في مدخل صغير لا تدخل السيارة منه، فتركنا السيارة في مكانٍ آمن ثم أكملنا رحلتنا سيرًا على الأقدام.

(في مدخل القرية).

وعد: مرحبًا، هل يُمكنني السؤال عن شيء بسيط؟

شخص مجهول: ...

وعد: لماذا تهرب مني؟ قف ولو لدقيقة.

لورا: وعد، أنا قلقة من هذا المكان؛ دعينا نذهب من هُنا، ألم تُشاهدي هذه المناظر الغريبة أمامك؟ هل ما زلتِ مُصرة على الاستمرار؟

وعد: يجب أن نُكمل ما بدأنا فيه.

لورا: ولكن يُراودني الخوف.

وعد: لا تخافي، نحن معًا.

الساعة الثانية بعد مُنتصف الليل، عندما كُنا نسير في شوارع القرية رأينا شجرة كبيرة، وهذه الشجرة تُسمى شجرة الجمّيز، عندما رأتها لورا فزعت من شكلها، فقمتُ بإمسكها من يديها وحاولتُ أن أُطمئنها.

لورا: ما هذا يا وعد؟ أنتِ لم تحكِ لي عن هذه الشجرة.

وعد: لا تقلقي، هذه الشجرة يُطلق عليها شجرة الجمّيز، وهي شجرة شديدة السخونة، وتظهر بعد الساعة الثانية بعد مُنتصف الليل.

لورا: ولمَ هذه السخونة؟

وعد: هُناك من قال إن هذه السخونة بسبب تعويذة من أحد السحرة، وهُناك من قال إن سببها سكون الجن فيها.

في نهار اليوم التالي سمعنا ضوضاء حولنا، ففزعنا من هذه الأصوات، فنظرنا حولنا ورأينا أشخاصًا غريبو الأطوار، فسألني شخص منهم: مَن أنتما؟

وعد: نحنُ.. نحنُ جئنا إلى هُنا كي نسأل عن شيخ قالوا لنا إن «سِره باتع» مثلما يُطلقون عليه.

نفس الشخص: وكيف جئتما إلى هُنا؟

وعد: سألنا أشخاصًا سبق لهم أن جاءوا إلى هُنا.

نفس الشخص: حسنًا، تعاليا معي.

أخذَنا هذا الرجل إلى مكان شديد السواد تحت الأرض، دخلنا إلى مكان أشبه بالقبور، ولكن لم نرَ أي شخص أمامنا، وفجأة إذا بصوت يأتي من ورائنا جعلنا نصرخ في صوت واحد.

الساحر شخص طويل القامة، شديد السواد، له شارب وذقن طويلة جدًا، يظهر عليه كِبر السن، ولكن عندما تراه تظن أنك رأيت عفريتًا وليس شخصًا.

الساحر: من أنتما؟

وعد: أعتقد أنك تعرف مَن يأتي إلى هُنا ولماذا قبل أن يتفوّه هذا الشخص ولو بكلمة واحدة عن نفسه.

الساحر: جيّد، أنتِ وعد، وهذه صديقتك لورا.

لورا: يا إلهي! كيف عرفت أسماءنا؟

الساحر بضحكة شريرة: لا تسألي عن شيء هُنا.

وبعد حديث دار بيننا نحنُ والساحر خرجنا من مكانه المرعب والخوف يدق في قلبينا من كلام هذا الساحر، فعندما كُنا معه طلب منا أشياء غريبة، مثل شعر أسد، ودماء عصفور، وأشياء أخرى غريبة كطلبات للجن كما يطلقون عليها، ولكن بعدما خرجنا تجولنا في القرية، وعرفنا أشياء أخرى عن هذه القرية، وهذه الأشياء إذا قرأنا عنها فسوف نقول إنها خرافات وليس لها أساس من الصحة، ولكن أكثر من شخص أكّد على أن هذه الأشياء حدثت بالفعل.

بعدما سجّلنا كل شيء عن القرية في دفاتر كي لا ننسى أي شيء، وبعد قضاء أسبوع في هذه القرية الغريبة، توجّهنا إلى القاهرة، ذهبت كل واحدة منّا إلى بيتها، وفي صباح اليوم التالي التقينا وذهبنا إلى المجلة كي نعرض عليهم مقالنا الصحفيّ الجديد. تغمرنا الفرحة، فهذه القرية لم يذهب إليها أحد قط، ولكن عندما التقينا بالمدير، أخبرناه عما حدث معنا في تلك القرية، فصار يصرخ فينا بِشدة وقال لنا إننا إذا كُنا نُريد العمل معه، نتخلى عن هذا المقال، وطردنا من مكتبه.

لورا: ألم تُلاحظي يا وعد أن حضرة المدير كان منزعجًا جدًّا؟ لا أعلم لماذا، الموضوع لا يستحق كل هذا.

وعد: أنتِ على حق يا لورا، يجب أن نعرف لماذا انزعج المدير.

وبعد بحث وعناء شديدان وراء المدير اكتشفت أن المدير سبق لهُ أن ذهب إلى هذه القرية، والتقى بساحر، وقام بعمل سحر لهُ كي يكون ناجحًا في عمله جدًّا ومتفوقًا أيضًا، ولكن كل هذه الأشياء لا أقتنع بِها، كيف لشخص مثلنا تمامًا أن يكتب شيئًا أو يفعل شيئًا ويجعل الشخص الآخر من الناجحين والمتوفقين، فإذا كان الوضع هكذا ما تعب الناس في النجاح، ولذهب كل البشر إلى السحرة والدّجالين كي يتفوقوا في دراستهم وعملهم.

قُمتُ بعمل صفحة على الفيس بوك كي أبدأ في نشر مقالاتي عن مثل هذه الأشياء، لأنني لا أستطيع أن أنشر هذه الأشياء في المجلة، فبدأت في نشر أول منشور على الصفحة وكان قصيرًا للغاية، ولكنه حصل على الكثير من التعليقات والإعجابات، والكثيرون يُطالبون بتكملة نشر ما بدأته، فكان مضمون المنشور الآتي:

«من منِّا لم يسمع عن الأعمال السُفلية والسحر والدجل والشعوذة؟ جئتُ إليكم من أرض الواقع كي أحكي لكم تجربتي في قرية يُطلق عليها (قلعة السحر) لكثرة من يعملون فيها في الدجل والسحر، وبداية حديثي عن...».

بالتأكيد أنا سعيدة لأن خطّتي سوف تنجح وسوف أفضح الكثير والكثير على هذه الصفحة، فأنا لم أقل اسمي الحقيقي، بل قمت بعمل صفحة باسم مُستعار كي لا يحدث لي أي ضرر، فكمّ المعلومات التي أمتلِكُها خطير للغاية، وقمت بكتابة منشور آخر وهو الآتي:

«الكثير من كبار الدولة ولاعبي كُرة القدم يذهبون إلى قرية محلة بشر أو كما يُطلق عليها قلعة السحر، وليس لاعبو كرة القدم فقط، بل أصحاب المجلّات الكُبرى في الدولة، وأيضًا من يمتلكون مكانة كبيرة في الدولة. لماذا يذهبون إلى هذه القرية، هل تعتقدون أنهم يقومون بعمل الأسحار أم ماذا؟».

وهكذا كنتُ كل يوم أقوم بنشر أشياء كثيرة حتى أصبحت الصفحة كبيرة جدًّا ونالت الكثير من الإعجابات، وبعد الكثير من المنشورات قمتُ بكتابة منشور أزعج الكثير على الصفحة، فكان مضمونه:

«ماذا لو قلتُ لكم إن ما أنشره لكم ليس حقيقة وأنه من وحي خيالي؟ إننا إذا قمنا بتصديق كل ما يحدث حولنا سوف نعيش في زمن أشبه بالإنسان الآلي الذي يسمع كلام كل الأشخاص من حوله وينفذه على الفور. ليس كل من ينشر على التطبيق المدعو فيس بوك نُصدقه على الفور، يجب علينا عدم اتباع السوشيال ميديا في كل شيء، لأننا سنصبح كالإنسان الآلي الذي يجب عليه السمع والطاعة في كل شيء».

البعض قام بالتصديق على كلامي، والبعض الآخر أصبح يقول كلامًا بذيئًا وشتائم لا أقدر على قولها، وكل هذا لأنهم كانوا يُصدقونني في كل شيء أقوله عن السحر والدّجل، ولكن هل تساءلوا إذا ما كنتُ على حق أم أقول أي كلام ليس لهُ أساس من الصحة؟ بالطبع لا، لأنهم ليس لديهم عقل يفهم ويعقل كل شيء، فإذا كان لديهم عقل، كذّبوا كلامي على الفور.

وبعد عدة أيام التقيت بنفس الشخص الذي جعلني أذهب إلى قرية محلة بشر، ولكن كان هادئًا أكثر من المرة السابقة، وعندما قمتُ بالحديث معهُ لم يهرب مني، بل وقف وتحدث معي، وقال لي قصة غريبة جدًّا، فأخذتُه إلى مكان ليُقيم فيه بدلًا من إقامته في الشوارع، وأصبحتُ أعتني بهِ نوعًا ما حتى أصبحت حالته أفضل مما كان عليها، وكانت كل يوم تزداد ثقته بي حتى حدثني عن نفسه وعرفت من هو، فهو من عائلة كبيرة في القرية، وهذه العائلة مشهورة بالأعمال السُفلية والسحر الأسود، فكان يتصدى لهم، فقاموا بسحره وأصبح كالمجنون، ولكن حالته ليست سيئة كثيرًا لأنه كان يقرأ القرآن ويُحصن نفسه به، فكان جيدًا إلى حد ما.

وبعد فترة قمتُ بكتابة منشور على الفيس بوك كان مضمونه الآتي:

«ماذا تفعل لو رأيت قطًّا يتمحّك ويتلمّس بِك في الشارع؟».

جاءت الكثير من الردود على منشوري، منهم من يتركها ويذهب بعيدًا عنها، والآخرون قالوا إنهم سوف يقومون بضربها كي تذهب بعيدًا.

وبعد أن تلقيتُ منهم الردود تذكرتُ موقفًا من مواقف أهل قرية محلة بشر، فعندما كنت أنا ولورا في القرية حكى لنا أهل القرية عن رجل كان يتمشى في شوارع القرية، وجاءت قطة أمامه وكانت هذه القطة تلتصق به طوال الطريق، وكلما قام بإبعادها عنه التصقت به مرة أخرى، فقام بضربها بقدمه، ثم عثر عليه رجال القرية مشلولًا ولا يقدر على الحديث، وكل هذا بسبب ضربه القطة، ولكني لا أصدق هذا الكلام، فمن العاقل الذي يُصدق أن قطة تفعل هذا؟! لا أُنكر أن القطط مؤذية، ولكن القطط السوداء فقط تشعر أنها سيئة، فعندما كنتُ جالسة ذات يوم في غُرفتي مرّت من أمامي قطة سوداء وظلت تنظر إليّ، جعلتني أرتجف من الخوف بسبب نظراتها إليّ، ولكن عندما قرأتُ بعض الآيات ذهب الخوف، لذا تحصنوا بالقرآن الكريم في كل أمور حياتكم.

لذا يجب علينا عدم اتباع كلام السحرة والدجالين في أي شيء، لأن اتباع مثل هؤلاء سوف يؤدي بنا لا محالة إلى الهلاك، فيجب علينا عدم القول بأن هناك وجود للدجل والسحر في كل شيء يحدث في حياتنا، فإني أرى أُناسًا يربطون حياتهم كلها بالسحر والدجل، فإذا حدث شيء سيء لهم يقولون إن هناك من يسحرهم كي يكونوا في حالة سيئة.

(في صباح يوم جديد).

لورا: وعد، ماذا ستفعلين بالصفحة؟ هل ستستمرين بالكتابة فيها أم لا؟

وعد: لا أعلم، ولكنني أريد نشر الوعي بين الناس حتى لا يقعوا في بئر السحر والشعوذة.

لورا: وأنا معك في كل شيء حتى يعمَّ الخير على الجميع.

وعد: شكرًا لكِ يا لورا.

بداية جديدة بعدما كنتُ سأغوص في بئر السحر والدجل والشعوذة، وحياة جديدة بعيدة عن كل هذا، فعملي جعلني أقوم بشيء لا أتخيل أنني سأفعله، عزمت على أنني سأبدأ من جديد، وسوف أقوم بتوعية البشر من حولي بعدم اتباع الخرافات القديمة وعدم الاستسلام لآراء الناس في الذهاب إلى السحرة والمشعوذين حتى لا تُصبح حياتهم كالجحيم، وأيضًا عدم اتباع السوشيال ميديا، لأن الكثير من حالات الدمار يكون وراءها السوشيال ميديا وعبثها، فمن لا يفقه شيئًا الآن يقوم بإثارة الجدل على منصات الميديا على موضوع تافه لا يستحق الكلام عنه، كل هذا حتى يصبح كلامه ترينداً كما يطلق عليه الجيل الحالي.

مثل كل يوم، ذهبت إلى عملي في غاية التفاؤل لأنني تركتُ ما كنتُ عليه وأصبحت إنسانة جديدة، لكن هيهات لسعادتي العارمة هذه، فقبل أن أدخل من باب المجلَّة تلقيت خبر طردي، ولكنني لا أعلم لماذا قاموا بالاستغناء عني، فدخلت عنوةً، ودخلت مكتب المدير، وتحدثتُ بصوت عالٍ: لماذا طردتني من هُنا؟ كي لا أفضحك وأفضح أمثالك؟ أنت شخص حقير وقذر؛ فعلتَ كل شيء حتى تصبح في مكانتك هذه، ولكني لم أتفوه بكلمة واحدة عنك، وماذا فعلت أنت؟ قُمت بطردي من هُنا، ولكنك لا تعرف عواقب فعلتك هذه.

المدير ببرود: ماذا ستفعلين؟

وعد: سأقوم بالكشف عن اسمك، وسوف أفضح كل شيء تفعله في السر.

المدير: وماذا تعرفين عني؟

وعد: أعرف الكثير، مثلًا النقود التي تأخذها كي تنشر مقالات خاطئة وليس لها مصدر موثوق، وذهابك إلى قرية محلة بشر في السر كي تقوم بالسحر والدجل.

المدير: أولًا، لا تستطيعين فعل أي شيء.

ثانيًا، ما الدليل الذي تملكينه يُثبت إدانتي؟

وعد بضحكة سخرية: لا، إنني أستطيع فعل كل شيء، لأنني لا أخاف من أي شخص مهما يكن.

أما عن الدليل، فمن قال لك إني لا أملك دليل إدانتك؟

المدير: لا تستطيعين فعل شيء لأنك إن قمتِ بأذيتي، فسوف تتأذى عائلتك كُلها، وأنتِ في المقدمة.

وعد بخوف: ماذا ستفعل؟

المدير: سوف ترين بنفسك، والآن اخرجي حالًا من مكتبي.

ظل يتردد كلام المدير في أُذني، ماذا سيفعل؟ قمتُ على الفور بالذهاب إلى المنزل حتى أطمئن على عائلتي، فهي أغلى شيء في حياتي، وعندما قمتُ بالدخول إلى المنزل وجدت أمي جالسة تُشاهد التلفاز، وسألتُ عن أبي وأخواتي، ردّت أمي قائلةً: ذهب والداكِ إلى العمل، وأخواتك في المدرسة، ولكن لماذا جئتِ مُبكرًا من العمل؟

وعد: استغنَوا عني يا أمي.

الأم: لماذا؟

وعد: سأحكي لكِ كل شيء يا أمي.

الأم: تحدثي.

وعد: عندما كنتُ في تحقيق صحفي... إلخ.

الأم: لا أستطيع أن ألومك على فعلتك وكذبك علينا عندما قلتِ إنكِ ذاهبة في رحلة لا إلى هذه القرية الغريبة التي ذكرتيها، لأنني واثقة أنكِ لن تفعلي شيئًا خطأً، ولكن كان يجب أن تُخبريني كل شيء يحدث معك.

وعد: كنتُ أعلم أنك ستقولين لي هذا يا أمي، أُريد أن أجد حلًّا، بماذا تنصحينني؟

الأم: لا تفعلي أي شيء خطأ وقومي بفعل ما هو صحيح. يا بُنيتي، نحن في زمن ينتصر فيه القوي على الضعيف، ونحن ضعفاء لا نقدر على فعل شيء.

وعد: لا تقلقي يا أمي.

والدة وعد امرأة في الخمسينات من عمرها، امرأة جميلة يظهر على وجهها الحنان والسكينة، عندما تراها تطمئن إليها، فهي ذات عينين بُنيتين، ترتسم على وجهها الابتسامة، فهي امرأة حنونة رقيقة طيبة.

بعد حديث أمي لي خِفتُ عليهم، لأن عائلتي هي أغلى شيء في حياتي ولا أستطيع العيش دونها، لذا أخذت قرار ألا أفعل أي شيء خطأ، ولكن سأقوم بفعل شيء آخر، وهو أنني سأُكمل منشوراتي على الفيس بوك، فلا أحد يعرف من الذي ينشر هذه المقالات.

قمتُ بعمل شيء جديد وهو -بما أني لا أعمل- سأكتب مقالاتي وأقوم بنشرها، سأبدأ من جديد بعدما كان محتوى الصفحة السحر والحديث عن القرية اللعينة التي قمتُ بالذهاب إليها وغيّرتْ حياتي، سأقوم بكتابة أشياء جديدة ومختلفة، وفي نفس الوقت أشياء مُفيدة في حياة الجميع.

«من منَّا لا يُحب السوشيال ميديا؟ كل شخص الآن تراه يتصفح الإنترنت بكثرة حتى تدمّرت عقولنا جميعًا، أصبحنا جميعًا نمشي وراء الإنترنت في كل شيء، استسلمنا لكل الآراء التي يقولها الكثيرون أمامنا ونراها على الإنترنت».

كان هذا أول منشور أقوم بتنزيله على صفحة الفيس بوك حتى تلقيتُ الكثير من التعليقات على المنشور، كانت كلها تعليقات إيجابية وهذا ما أسعدني كثيرًا، الكثير أكّد على كلامي وسوف يقومون بتغيير أنفسهم من الآن، وهذا جعلني سعيدة للغاية. قمتُ بكتابة منشور آخر أقترح فيه إنشاء مجموعة حتى ينضم فيها من يُريد تغيير نفسه وحياته، ووافق الكثيرون وانضمّوا في المجموعة، وكان أول شيء قمتُ باقتراحه كي نفعله معًا.

الاقتراح الأول: نبدأ يومنا بصلاة الفجر، ثم قراءة ورد قرآن وقراءة الأذكار، ثم نُكمل يومنا الطبيعي، ويجب أن نقلل استخدامنا من الإنترنت حتى يكون يومنا مليء بالبركة.

الاقتراح الثاني: يجب أن نقوم بالقراءة عشر دقائق كل يوم في كتاب جديد حتى تزداد معلوماتنا، وبالتالي لا نستسلم لكل الآراء السائدة في المجتمع أو على السوشيال ميديا.

وهكذا كنتُ أقوم بكتابة شيء جديد كل يوم، قمتُ بعمل جدول، وكان كل شخص في المجموعة يقوم بعمل مهمة اليوم أُدون اسمه في الجدول حتى تغيرنا كثيرًا، وكان من في المجموعة سعيد للغاية بتغيير حياته إلى حياة جديدة.

قمتُ أيضًا بكتابة منشور آخر كي أبدأ مشواري الجديد، ولكن جعلتُ كلامي بالألغاز وكان الآتي:

«يجب علينا أن نأخذ الحذر من كل شيء، ويجب علينا أن نأخذ الحذر الأكبر من كِبار المسئولين في الدولة، فكل منهم يقوم بأفعال خبيثة، ومن هؤلاء الأشخاص (م.ع) وهذا الشخص هو مدير مجلة معروفة، كان يتّبع السحر والشعوذة حتى يكون ناجحًا، وأيضًا لاعبو كرة القدم».

جاءتني الكثير من الردود عن معرفة هذا الشخص، ولكني رفضت البوح باسم هذا الشخص حتى لا أُصيب أهلي بالأذى.

أصبحت الصفحة كبيرة جدًا وانضم إليها الكثير، وكنتُ أُدعى إلى ندوات كثيرة وكنت أرفضها، ولكن بعد الكثير من الرفض لندوات كثيرة، وافقت على إحدى الندوات، وتحدثتُ مع لورا في الموضوع.

لورا: وعد، هل ستذهبين حقًّا إلى الندوة؟

وعد: نعم.

لورا: سوف تكشفين عن هويتك إذًا.

وعد: نعم، إلى متى سأكون في الخفاء؟ يجب أن أكشف نفسي.

لورا: هل تعرفين عواقب فعلتك؟

وعد: نعم، ولكن لا تقلقي، أنا أعرف ما سأفعل في القادم.

لورا: أنا معك في كل شيء، ولكن ما ميعاد الندوة؟

وعد: ستكون بعد غد.

لورا: حسنًا، سأكون معك.

(في يوم الندوة).

منظم الندوة: أريد أن أُقدّم شخصية بيننا الآن وهي من أبرز شخصيات الندوة، فهي فتاة صغيرة السن قامت بعمل شيء جميل ولا يقدر الكثيرون على مثل هذه الأشياء في عصرنا الحالي، العصر الذي سيطرت عليه الميديا بشكل كبير حتى قضت على حياة الجميع، رحّبوا معي بالآنسة وعد محمد أحمد.

(تصفيق من الجميع).

وعد: السلام عليكم، أنا وعد محمد أحمد، فتاة في العشرينات من عمري، فتاة تُحب المغامرات وعملها رقم واحد في حياتها، رأيتُ شخصًا غريبًا في مرة، وهذا الشخص جعلني أقوم بالسفر إلى قرية غريبة يُطلق عليها قلعة السحر لكثرة ما يحدث فيها من أعمال السحر والدجل والشعوذة، واكتشفت أشياء كثيرة فيها، ولكني لا أصدق كل هذه الخرافات، لأنني مقتنعة بأن بوجود القرآن الكريم في حياتنا لن يحدث لنا أي شيء سيء، فيجب علينا عدم اتباع المعتقدات القديمة في الدجل والسحر وفي أي شيء آخر في حياتنا، ويجب علينا أيضًا ألا نتّبع أي شخص يقول لنا أي شيء، لأنه بالتأكيد سيكون كاذبًا.

قمتُ بإنشاء صفحة على الفيس بوك، كنتُ أنشر فيها واشتُهرت كثيرًا، وقمتُ أيضًا بعمل مجموعة كي نُحفّز بعضنا على فعل أشياء مُفيدة في حياتنا، وبالفعل نجحت في فكرتي، فكنتُ كل يوم أقترح عليهم القيام بعمل جديد في يومنا، وبالتالي تغيّرت حياتنا جميعًا عما كانت عليه من قبل، لذا يجب علينا عدم الاستسلام لكل الآراء، وعدم الاستسلام للإنترنت، لأننا إذا تركنا أنفسنا للإنترنت، فستصبح حياتنا أشبه بروبوت آلي يسمع ويفعل ما يطلبه الآخرون من حوله، ويجب على كل من يجلس أمامي الآن أن يأخذ خطوة جديدة في حياته ويترك ما كانت عليه حياته من قبل. حياتنا جميعًا ليست الأفضل، ولكننا سوف نُجاهد حتى تتحسن قليلًا ولا نضع على عاتق عائلتنا الفشل، لذا قوموا بخطوة جديدة تُغير حياتكم إلى الأفضل.

بعد انتهائي من حديثي هذا قام الجميع بالتصفيق لي، ففرحتُ كثيرًا بنجاحي هذا.

منظم الندوة: والآن انتهت ندوتنا اليوم، ولكن سوف نُهدي الآنسة وعد هذه الهدية البسيطة، نظرًا لما فعلته في الفترة الأخيرة ولنجاحها الكبير الذي فعلته في حياتها.

لوار: أنا فخورة بكِ كثيرًا يا وعد.

وعد: أشكركِ حبيبتي.

لورا: ولكن لماذا بعدما تلقيتِ مكالمة الهاتف فرحتِ كثيرًا؟

وعد بضحكة: سأقول لكِ، آخر منشور على الصفحة كان يتضمن اسم شخص، وهذا الشخص هو مُدير المجلة، أنا أرسلت للشرطة كل الأدلة التي كانت معي، لأنني واثقة أنه سوف يفعل لي شيئًا سيئًا، وهذه المكالمة كانت عنه، فقامت الشرطة بالقبض عليه، وأقفلت له المجلة.

لورا: ولكن ما الأدلة التي قمتِ بتقديمها للشرطة يا وعد؟

وعد: سأقول لكِ، أتتذكرين قبل أن يقوم المدير بطردي؟ كنتُ قد بحثتُ في مكتبه ووجدت أوراق نصب لشركات كبيرة كان يقوم بها، وقمتُ بتسجيل صوتي له يعترف فيه بأنه كان يذهب إلى السحرة والدجالين كي يقوموا بعمل السحر له حتى ينجح، وأيضًا أنه كان يُريد القيام بعملية قتل لأحد الأشخاص.

أصبحتُ في قمة سعادتي بعدما أخذتُ حقي من المدير، فأنا لا أُحب الظلم أبدًا، كنتُ خائفة على عائلتي، ولكن اليوم لم أعد خائفة لأنني لا أفعل شيئًا خطأً، ويجب على الجميع عدم السكوت عن الخطأ في حياته، فيجب أن نأخذ خطوة إيجابية في كل أمور حياتنا، ولكن لا نستسلم أيضًا لآراء الناس ولا نستسلم للإنترنت، لأنه حتمًا سيُذهب عقولنا جميعًا.

«وفي النهاية لم تنتهِ الحكاية».

بصمة قلم

قصة

فِي دَارِ الكُتُب

الكاتبة

فاطمة عادل

إسمين

-الرسامة: سارة عصام.

فِي دَارِ الكُتُبِ

فاطمة عادل

تصحيح١: إسراء فتحي.

في إحدى محافظات صعيد مصر تسكن فتاة تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، تعيش حياةً روتينةً، وفي يوم من الأيام جاءت خالتها من القاهرة وأخذتها من بيتها لِتُكملَ دراستها معها بعد أن تركها والداها وفارقا الحياة.

في الصباح تستيقظ نعمة على صوت المؤذن وهو يقول: الصلاة خير من النوم.. الصلاة خير من النوم، فتأخذها الكلمة من راحتها في السرير وتنهض لتؤدي فريضة الفجر، وبعد الانتهاء من الصلاة تجد خالتها إلى جانبها تُقبّل جبينها وتدعو لها أن يحفظها الله من كل مكروه، فتبدأ نعمة في استيعاب أنها لم تعُد في بيتها، بل هي الآن أصبحت في بيت خالتها، وأن عليها أن تعيش بقية عمرها في هذا المكان دون والديها.

لم تكن نعمة تعرف الكثير عن القاهرة رغم أن هذه ليست الزيارة الأولى لها، فقد كانت تتردد إلى القاهرة كثيرًا مع والديها في زيارات لخالتها، لكن هذه المرة شعرت أن شيئًا غريبًا استحوذ عليها، خاصة أنها فقدت الجانب الأهم من حياتها؛ فقدت والديها الذَين كانت تشعر معهما بالطمأنينة، والدفء، والجو العائلي المناسب لها، إضافة إلى أنها لا تعرف نظام المدارس والدراسة في القاهرة، كما أنها شخصية استقلالية منطوية كثيرًا، لا تفضّل الاحتكاك ولا التعامل مع البشر.

نعمة فتاة مراهقة، ولكنها لا تفكر مثل الكثير من المراهقات في فتى الأحلام وغيره، ولكن عقلها المراهق الآن يفكر في أن تعيش سنّها وتستمتع، ولكن فقدان والديها المفاجئ جعلها في حالة من الصمت أكثر من ذي قبل.

فتاة جميلة تتمتع بروح خفيفة، قصيرة القامة، تتمتع ببشرة خمرية ووجه دائري، عيناها بنية اللون تميل إلى اللون العسليّ تحت ضوء الشمس، رشيقة الجسد وتتمتع بصحة جيدة، كما أنها ترتدي حجابًا طويلًا، ولبسها فضفاض.

بعد أن جاءت إلى القاهرة كان من الصعب عليها إكمال دراستها، ولكنها ظلت تنظر إلى الورقة التي أعطتها لها والدتها وهي لا تفهم ما تريد أن تقول لها في هذه الورقة، ولكنها كانت تعطيها دافعًا للتحرك إلى الأمام، واستمرت حياتها في القاهرة بطريقة مرتبة بعد أن تعرّفت على طريق المدرسة وحفظته، وبعد عودتها من اليوم الدراسي استقبلتها خالتها، ووصفته لها: إن الأجواء غريبة بعض الشيء، وربما لم أتأقلم مع المدرسة والأصدقاء، أشعر أنني غريبة. فأجابتها الخالة: يا حبيبتي، الأمر سيستغرق بعض الوقت، ولكنكِ ستعتادين، فقط اتركي العنان لروحك واستمتعي، وأنا معك، سأدعمكِ في كل شيء لا تقلقي، هيا بدّلي ملابسكِ واستريحي قليلًا.

وبالفعل ذهبت نعمة إلى غرفتها لترتاح قليلًا، فتذكّرت تلك الورقة، فأسرعت في فتحها، فكانت عبارة عن ورقة صفراء قديمة كأنها خطاب من ورق البردي، مستطيلة الشكل، كُتِبَ داخِلِها: «رزقني الله نعمة، فأسميتها نعمة، ابحثي عن الورقة الأخرى». ظلت نعمة تنظر، وتتعجب، وتقول: عن أي ورقة سأبحث؟ ولمَ سأبحث؟ ما الذي تريدينني أن أصلَ إليه؟ ليتكِ كنتِ هنا وأخبرتِني.

ثم تذكَّرت شيئًا آخرًا يشغلها، وهو أنها تعيش مع خالتها، فلا بد أن تقتصد لها قليلًا، ثم أرهقها التفكير، فنامت.

في اليوم التالي وفي أثناء عودتها من المدرسة، وجدت لافتة مكتوب عليها: «نحتاج فتاة للعمل بالمكتبة»، جاء إلى ذهنها أن تعمل من أجل أن تحسّن الدخل مع خالتها، خاصةً أن الأمر أصبح ثقيلًا على خالتها رغم أنها لم تشكُ من أي شيء أمام نعمة أو من خلفها. استفاقت من شرودها ونظرت إلى لوحة المكتبة، فوجدت اسمها (نعمة).

لم تفكر ثانية، بل دخلت مسرعةً إلى المكتبة وسألت عن بعض التفاصيل، ولم تأخذ خطوة القبول أو الرفض إلا بعدما تعود إلى خالتها وتخبرها بالأمر، وهذا رغم عدم محبتها أي شيء متعلق بالكتب، فهي تنظر إليها كأنها شيء ممل، فهي تحب الأشياء العملية العقلية والمسائل الرياضية.

عادت إلى البيت فوجدت خالتها جالسة، ألقت عليها التحية وقبّلتها، وقالت لها: أعتقد أنكِ عدتِ باكرًا اليوم على غير طبيعة عملك.

عزة: أنا تعبت قليلًا، لذلك عدت باكرًا.

نعمة: ما بكِ خالتي؟ أتشكين من شيء يمكنني مساعدتكِ فيه؟

عزة: سلَّمَكِ الله يا حبيبة قلبي، اذهبي بدّلي ملابسك لنأكل.

عزة هي امرأة تبلغ من العمر خمسين عامًا، توفِّيَ عنها زوجها منذ خمسة أعوام وهي لا تُنجب، لذلك كانت الأحق بأخذ نعمة بعد وفاة والديها نظرًا لأنها تعيش وحيدة.

استيقظت نعمة في المساء وجلست مع خالتها لتحكي معها قليلًا، وكان الحديث به الكثير من التشجيع لنعمة حتى تستمر في دراستها وألا تنهزم أمام الفقد، بل لا بد من صبر ومثابرة.

وفي أثناء حديثهما أشارت نعمة للخالة على أمر الرسالة، فقالت: أتعلمين خالتي، لقد اشتقت كثيرًا إليهما وتحديدًا أمي، فهي كانت تجلس معي كثيرًا، وكنت أشعر دائمًا أنها ترغب في أن تقول لي شيئًا وماتت دون أن تقوله، هذا الأمر يزعجني كثيرًا.

عزة: لا تنزعجي يا حبيبتي، ربما في هذا الشيء الذي لا تعلمينه حكمة من الله سبحانه وتعالى، لا تتعجلي يا نعمة، بل اصبري.

نعمة: حاضر يا خالتي.

عزة: الآن اخلدي إلى النوم يا فلذة القلب، لديكِ مدرسة غدًا.

ذهبت نعمة إلى الغرفة متعمدة عدم إخبار خالتها عن أمر العمل، لأنها تخشى رد فعلها.

في اليوم التالي ذهبت نعمة إلى المدرسة وأكملت اليوم الدراسي وعادت إلى البيت، وعند عودتها وجدت خالتها في حالة يُرثى لها.

نعمة: ما بكِ يا خالتي؟ وجهك شاحب اللون.

عزة: بخير يا حبيبتي، انخفض مستوى الضغط وأنا في المدرسة وأصبت بالإغماء، فرجعت لكي ارتاح.

نعمة: خالتي، أنتِ لستِ بحالة جيدة، يجب أن نذهب إلى الطبيب.

عزة: لا يا حبيبتي، ليس هناك داعٍ لذ...

وانقطع الكلام عنها وسقطت على الأرض.

أخذتها نعمة، ولكونها فتاة في هذا العمر فهي لا تعرف ماذا ستفعل، ولكنها نادت على الجيران ليساعدوها على حملها، وأخذتها إلى الطبيب.

عادوا من عند الطبيب، فقالت عزة: هذا معناه أنني لا أستطيع أن أذهب إلى العمل لمدة شهرين على الأقل.

نعمة: بالضبط يا خالتي كما قال الطبيب، عدم صعود الدرج أو نزوله، عدم حمل الأشياء الثقيلة، عدم الجلوس بشكل خطأ، القيام ببعض التمارين الرياضية حتى لا تضطرين لإجراء عملية جراحية، حالتك تحتاج إلى الراحة، وأقل مجهود يمكن أن يُزيد الأمر سوءًا، سأدخل المطبخ لأصنعَ شيئًا تأكلينه.

ابتسمت عزة ابتسامة ممزوجة بتعب، وقالت: ما شاء الله، أنتِ حفظتِ ما قاله الطبيب نصًّا، بارك الله فيكِ يا نعمة، فأنتِ نعمة أوجدها الله في حياتي.

قبَّلت نعمة رأسها، ودخلت إلى المطبخ وهي تفكر في خالتها، وتعلم أن انزعاجها وإصرارها على الذهاب إلى العمل بسبب حاجتهم لذلك، وقالت: لن أتركها تفعل ذلك، أعرف لمَ هي منزعجة، لأنها ستتوقف عن العمل لمدة، تفكر في ما سنأكل وكيف سنأكل وكل الأفكار التي تخطر في بالها الآن.

أحضرَتْ لها حساء لسان العصفور، فهو أكثر شيء تجيد فعلَه، وفي أثناء جلوسهما معًا قالت لها: خالتي، لا تحملي هم المال، أمس مررت بجانب مكتبة تحتاج إلى فتاةٍ للعمل فيها، سأذهب غدًا إليهم ربما يقبلونني، أنا بالفعل ذهبت وسألت عن بعض التفاصيل، غدًا إن شاء الله سأخبرهم أنني موافقة، وأنتِ لن تعارضيني.

عزة: لا يا نعمة، أنتِ ما زلتِ صغيرة، والناس هنا غير الصعيد، وأنتِ لا تعرفين أحدًا، ولن تستطيعي أن تتعاملي معهم، أنا سأعود إلى العمل بعد يومين ولن أتَّبع ما قاله الطبيب.

نعمة: خالتي.. من فضلك ثقي بي، اتركي لي الفرصة، ينتابني الفضول تجاه هذه المكتبة رغم عدم حبي للكتب والوجود في مكان به كتب.

عزة: لماذا يا حبيبتي؟ أخبريني أين هي وما اسمها؟

نعمة: اسمها (نعمة)، والشيء الوحيد الذي يشفع لهذا المكان لأعمل فيه هو أنَّ اسمَه على اسمي.

ابتسمت عزة وقالت: أنتِ تخاطرين لكون هذا المكان يحمل اسمك فقط! حسنًا لن أعارضَكِ ولكن أنا أستحيي منكِ يا ابنتي، أنتِ هنا لكي تكوني مسئولة مني.

ابتسمت نعمة بودٍّ، وقالت: لا تقلقي عليَّ، سأكون حريصة.

وفي صباح يوم الجمعة ذهبت نعمة إلى المكتبة، ووقفت أمامها وهي تشعر بشيء غريب لا تعرف ما هو، ولكن هناك شيء يدفعها إلى هذا المكان، ليس فقط لأنه على اسمها.

دلفت إليها وجلست منتظرة حتى خرج إليها رجل عجوز، شعره أبيض ولحيته بيضاء، طويل القامة ويحمل عصا في يده يستند عليها، وعلى عينيه نظارة كبيرة جدًا تغطّي نصف وجهه، جلس على مقربة منها ثم قال بابتسامة: مرحبًا بكِ في عالمي المتواضع.

نظرت نعمة له بتعجب، وقالت في نفسها: ماذا يفعل هذا الرجل الكهل هنا؟ لا أظن أنه مَن يعرّفني على العمل.

أفاقها من شرودها، وقال: نعمة.. اسم مكتبتي نعمة، ما اسمك يا فتاة؟

نعمة: اسمي نعمة أيضًا، ولكن أنا إنسان ولست مكتبة، وابتسمت ابتسامة ساذجة.

إدريس: لماذا أنتِ هنا؟

نعمة: وجدت ورقة على المكتبة كُتِبَ فيها إنكم بحاجة إلى فتاة تعمل في المكتبة، فأريد أن أعمل.

إدريس: ألستِ صغيرة قليلًا؟

قالت نعمة بانفعال: أيهمك السن أم تريد من يفهم العمل ويعمل بجِد؟

إدريس: حسنًا يا نعمة، وأنتِ في هذه السن الذي لا أعرفه إلى الآن، لماذا تريدين أن تعملي؟

نعمة: الحقيقة أن خالتي مريضة وأنا أعيش معها، لذلك أرغب في العمل لأجل احتياجات البيت، وعمري خمسة عشر عامًا.

إدريس: أتريدين أن تكوني مسئولة وأنتِ في هذه السن؟

نعمة: الحياة تضعنا في ظروف نضطر بسببها أن نقابل أشخاصًا لا نريد أن نتعامل معهم، وكذلك بقية الأشياء.

ابتسم بتعجب وفهم إلى ما ترمي، وقال: أنا موافق يا نعمة، يا من اسمكِ على اسم مكاني المتواضع، والآن تعالي معي لأعرفك بعض الأشياء.

بدأ في شرح الكتب لها، وكل قسم من أقسام الكتب، ودورها في المكتبة، وأنها ستساعد الزبائن في اختيار الكتاب المناسب لهم...

إدريس: وهكذا انتهينا، من الغد سيبدأ عملك بعد عودتك من المدرسة، ويمكنك هنا مذاكرة دروسك، ولكن قبل أن تذهبي لدي شرط وستقبلينه.

قالت نعمة مقتضبةً: إذًا، لا أملك حرية الرفض؟

إدريس: نعم، مطلوب منك في الشهر قراءة كتاب من اختيارك، ولكن تحت رقابتي.

نعمة: أنا لا أحب القراءة، لا يمكنني ذلك.

إدريس: هذا ما عندي، إذا أردتِ أن تعملي هنا، فعليكِ تنفيذ الشرط.

نعمة: موافقة.

قالتها وغادرت.

عادت إلى المنزل وأحضرت الطعام لها ولخالتها، ثم جلست لتدرس دروسها، وفتحت الورقة من جديد، وقرأت الجملة من جديد: «رزقني الله نعمة، فأسميتها نعمة، ابحثي عن الورقة الأخرى»، وقالت: أي ورقة يا أمي؟ وماذا تريدين أن توضّحي لي؟ أشعر بالعجز رغم استمرار حركة الحياة، ولكن لو تعلمين كم أن هذه الورقة تساعدني على المواصلة، وبداخلي شعور أن هناك أشياء جميلة قادمة! في هذه المحن أتذكر قولك لي: «رحمات الله تنزل علينا في أوقات الشدة، فاللهم قوة».

بدأت نعمة عملها مع الاستمرار في الدراسة وتغيرت حياتها من مجرد أكل، وشرب، ونوم إلى حركة، ورؤية أشخاص جديدة، بدأت تتأقلم على العمل في المكتبة، ولكن ما زال أمر القراءة ثقيل عليها، ولكنها تفعله ليبقى عملها مع هذا الرجل الكهل كما تقول عنه، ورغم معرفتها أنه يمتلك ثروة معلوماتية كبيرة، وحبها حديثه مع الزبائن وطريقته اللبقة في الكلام، فإنها تشعر أنه فرض عليها شيئًا لا تحبه، كان لا يتحدث لها كثيرًا، وكانت تراقبه في صمت، وتتعلم منه، وتأخذ من خبراته، وتُقلده كثيرًا في تعاملاته مع الزبائن، ولكن كانت لها لمستها المختلفة.

في أثناء العمل دخل زائر إلى المكتبة يرغب في الاطلاع على قسم التاريخ، فقال: أرغب في قراءة كتاب يحكي عن الصحابة بطريقة شائقة وماتعة، هل يمكنكِ أن ترشحي لي؟

نعمة: بالطبع أساعدك، في البداية أرغب في قول إن الكتب جميعها رائعة وإن جميع الكُتّاب بذلوا قصارى جهدهم ليُخرجوا تلك الأعمال إلينا، ولكن هناك كاتب ربما يكون أسلوبه متوافقٌ معك. اتفقنا إذًا، الآن يمكنك أن تقرأ كتاب (صور من حياة الصحابة) للكاتب: عبد الرحمن رأفت باشا، هذا كتاب له أكثر من مجلد، وهناك أيضًا للصحابيات والتابعين لنفس الكاتب، فطريقة عرض الكتاب جميلة، كما أن الكاتب أسلوبه بسيط، وتشعر مع الكتاب أن الصحابي هذا أو ذاك أمامك، ربما لأنني أقرأه الآن لذلك تحمست قليلًا، ولكن سيعجبك أنا واثقة.

بالفعل أحبَّ الرجل طريقتها في إقناعه بالكتاب ليأخذه، وبالفعل أخذه، وأخبرها أنه إذا أعجبه سيخبر جميع أصدقائه ليشتروه أيضًا، وشكرها وغادر.

بعد أن غادر الرجل المكان ناداها إدريس، وظل يحكي معها عن أمر هذا الكتاب، ولماذا رشحته هو تحديدًا رغم أن هناك الكثير من الكتب الموجودة التي يمكنها أن تُرشّحها.

قالت له: أنتَ أخبرتني عندما أقترح كتابًا على القارئ يجب أن تكون لدي خلفية كبيرة عنه، أن أكون قد تصفّحت ورقاته على الأقل، وأنا بالفعل فعلت ذلك حتى لا أُرشّح شيئًا أجهله، في النهاية هذا الكتاب الذي يقرأه وتلك المعلومات التي يحصل عليها ستنفعه كثيرًا، فأنا قرأت بعضًا منه، أحببته ولم أكذب عليه في أي معلومة، بل كل ما قلته هي أشياء شعرت بها بالفعل عندما قرأت بعض ورقاته، ولا بد أن أقترح للقارئ أشياء تناسب سنه وتفكيره لأن هذا مهم.

إدريس: أحسنتِ يا بُنيتي، هذا ما أحتاجه منك بالضبط، بعد هذا الكلام، أنا أستطيع أن أعتمد عليك بشكل كبير.

ابتسمت نعمة وغادرت لتكمل عملها من تنظيم الكتب، وترتيبها، وقراءة سريعة تعريفية للكتب التي لفتت نظرها.

عادت نعمة إلى المنزل وهي تشعر أنها قامت بعمل أكثر من رائع، فهي للمرة الأولى التي تُرشّح لأحدهم كتابًا وهي تشعر بالرضا عنه وعن نفسها، لأنها بالفعل تعرف الكثير من المعلومات التي تجعلها ترشحه بنفس راضية. وجدت خالتها في غرفتها ترتاح، فذهبت إلى غرفتها، وأخرجت الورقة، وظلت تنظر إليها وتقول: أشعر أنني اقتربت يا أمي، لا أعرف ممَ اقتربت ولكني تغيرت كثيرًا، والغريب أنني لم أرفض هذا التغيير.

استمرت حياة نعمة بين المدرسة والعمل والبيت، أصبحت أكثر مسئولية، وأكثر قدرة على تحمل الصعاب، أدركت معنى أن تكون لا شيء ثم تستطيع أن تحقق أي شيء، ومع مرور الأيام أحبّت نعمة العمل بالمكتبة، وكان لها دور فعّال في تحسين عملية البيع في المكتبة، وكانت تدعو الكثيرين من أصدقائها للاستعارة من المكتبة وقراءة الكتب المفيدة القيّمة التي تناسب أعمارهم، وفي يوم ما كان العم إدريس يجلس في أحد أركان المكتبة ويقرأ كتابًا، فخرجت عليه نعمة، وقالت: أريد التحدث معك من فضلك، هل يمكنني ذلك؟

العم إدريس: بالطبع يا نعمة، اجلسي، ماذا تريدين أن تقولي؟

نعمة: في البداية، أعتذر عن فظاظتي في أول لقاء لنا، لم أكن أحبّ المكان ولم أتحمل أحدًا وكان الأمر لأجل شيء معين، فحاولت أن أتوافق معه فقط، فكان الأمر صعبًا.

العم إدريس: أخبريني يا نعمة، لماذا لم تحبي القراءة؟ هل كان هناك شيء بالتحديد ما يزعجك منها؟

نعمة: في الحقيقة لم يكن الأمر هكذا، ولكن أنا أحب دراستي فقط، وكنت أظن أن القراءة تأخذ من وقتي ومجهودي، وأن الدراسة هي الأَولى، ولكن عندما قرأت شعرت أن الأمر يساعدني في دراستي، ويُزيد من معلوماتي الثقافية والدينية والاجتماعية وكل شيء، كما أنني كنت أرى القراءة أمرًا مملًا جدًا يُصيب المرء بالملل ورغبة في النوم، ولكن كما قالت خالتي، العمل بحب يجعلك راضيًا عن كل ما تفعله ولا يجعلك تشعر بالثقل، تقريبًا أنا في طريقي إلى حب القراءة.

ابتسم العم إدريس، وقال: أتعلمين أن هذا الشيء يسعدني كثيرًا؟ أنا فتحت هذه المكتبة منذ خمس عشرة سنة، وهي عالمي بالفعل، كنت أحب القراءة كثيرًا، وأردت أن أفعل شيئًا يُزيد من حب الناس للقراءة والتعلم، وكان هناك الكثيرون مثلك، ولكن إذا أحببتِ القراءة، فلن تنفكي عنها، ستجري في دمك. أخبريني، أين تعيشين؟

نعمة: أعيش بالقرب من المكتبة في الشارع المقابل، ولكن أعيش مع خالتي.

العم إدريس: إذًا أنتِ زائرة هنا لمدة قليلة أليس كذلك؟ لا تقولي هذا، أنا اعتدت على وجودك معي في المكتبة، افتقدت هذا الشعور منذ سنوات.

نعمة: لا، سيستمر عملي إن شاء الله.

ثم قالت وعيناها تلوح في المكان: لأن أمي وأبي توفيا، فأعيش مع خالتي.

تغيرت ملامح العم إدريس وقال: رحمة الله عليهما.

صمتت قليلًا وقالت: الموت يأخذ من نحب في دنيا لا نعرف فيها شيئًا عن الراحة، فراحتنا كلها ذهبت معهم.

العم إدريس: ليس الموت فقط من يأخذ من نحب، أيضًا الدنيا نفسها يا ابنتي تفرق بعضنا عن البعض.

نظرت إليه نعمة وهي ترغب في أن يُكمل كلامه، ثم قال: على الأقل زوجتي تركت الحياة وذهبت إلى الله عزّ وجلّ وأنا أعرف أين هي، لعلّها في جنة الخلد إن شاء الله، ولكن ابنتي تركتني وغادرت ولا أعرف عنها شيئًا إلى الآن.

نعمة: كيف غادرت؟

العم إدريس: جاء زميلها من الجامعة لي ليخطبها، ولكني رفضت حينها، ليتني لم أفعل ذلك، بعد أن عرفت أنها تحبه زجرتها وقتها وأرسلتها إلى أقاربنا في الصعيد حتى تنقطع علاقتها بهذا الشاب تمامًا، ومنذ ذلك الوقت لا أعرف شيئًا عنها سوى أنها تزوجت وانقطعت أخبارها عني. يا بنيتي، أنا أخطأت أعرف ذلك، ولكن حبّي لها جعلني لا أستطيع أن أرى أحدًا غيري يحبّها، ولكن الحب الحقيقي هو أن أجعل من أحب في الطريق الذي يحبه حتى لو لم يعجبني هذا الطريق، خاصةً أنه أيضًا جاء ليطلبها، لن أسامح نفسي على هذا الشيء حتى إن هي سامحتني على فعلتي.

نعمة: إن شاء الله تسامحك، أنت رجل طيب جدًا، وتعلمت من خطئك، لا أعرف ما أقول، ولكنني حزنت لأجلك.

العم إدريس: الآن جعلتِني أبكِي أيتها النعمة.

ابتسمت نعمة وقالت: أتعرف أن هذا الاسم كانت تناديني به أمي؟ شكرًا لأنك ناديتني به، ترك في نفسي شعورًا جميلًا.

غادرت نعمة المكان وهي تشعر بشيء يجذبها له، لا ترغب في الذهاب، ولكن الوقت تأخر وخالتها تنتظرها وهي قلقة بالتأكيد، وعندما عادت أخبرتها خالتها بضرورة السفر للصعيد، لأن الجد الأكبر في العائلة توفي، وستعودان في نفس اليوم لأجل دراسة نعمة. أحبت نعمة أن تذهب إلى منزلها في الصعيد لتتفقده، وعندما كانت تجول في البيت وتتذكر أيامها مع والديها، دخلت إلى غرفة أمها وجلست على سريرها، وتذكرت حين أعطتها الورقة وكانت ترفع إصبعها تجاه الخزينة، فذهبت مسرعة إلى الخزينة وفتحتها، فوجدت صندوقًا صغيرًا، فتحته ووجدت فيه الكثير من الأوراق والحليّ الخاصة بأمها، فوجدت أوراقًا تخص ميلاد أمها، فنظرت بتعجب وغادرت المكان فورًا، وفي أثناء العودة إلى القاهرة مع خالتها كانت شاردة كثيرًا، فقررت أن تقطع هذا الشك وهذا التفكير وأن تسأل خالتها عن هذه الأوراق.

عزة: نعمة، لماذا أنتِ شاردة؟ هل أتعبك الطريق، حبيبتي؟

نعمة: لا، لم يتعبني ولكن في الحقيقة أريد أن أفهم معنى هذه الأوراق.

وأخرجت الأوراق أمامها، نظرت عزة إلى الورق وهي مصدومة وتشعر أن الأمر الذي ظل سرّا لسنوات سينكشف الآن، ولكنها لم تستطع أن تصمت أكثر من ذلك، فقالت لنعمة: سأخبرك بكل شيء،

منذ سنوات جاءت أمك إلى هنا بعد أن طردها جدك من البيت وأرسلها إلى هنا لتعيش مع أقاربها، في ذلك اليوم أمك لم تذهب إلى أقاربها، بل جاءت عندي، وكنت أنا الصديقة المقربة لأمك، كانت بمنزلة رفيقة الروح رغم أنها كانت تعيش في القاهرة وأنا هنا، ولكن كنا ندرس معًا في إحدى السنوات، وظلت علاقتنا قوية، في ذلك الوقت عندما رآها أبي لم يعجبه أن يرسلها إلى أقاربها؛ خشية أن تجد منهم تصرفات لا تستطيع العيش بسببها، وأملًا في أن يأتي جدك ويأخذها، ولكنه تركها، فعاشت أمك معنا، أصبحت جزءًا من هذا البيت وغيّرت اسمها من نعمة إلى هناء، لتعيش بهوية أخرى حتى لا يعرف مكانها أحد، وتزوجت من أبيكِ وأنجبتكِ وأوصتني عليكِ، فإن حدث لها أي مكروه آخذك للعيش معي، وتزوجت من أبيكِ وأنجبتْ بنتًا جميلة مثلك، أمك كانت تحبك كثيرًا يا نعمة، وكانت ترى نفسها فيكِ، كانت تحبّ التعلم والاطلاع، وكانت ترغب في أن تعيشي حياة أفضل من التي عاشتها، وأوصتني عليكِ إن حدث لها أي مكروه حتى صار أمر الحادث معها هي وأبيكِ، أعرف يا ابنتي أن الكلام ثقيلٌ جدًا على قلبك، سامحيني لأنني كذبت عليك، ولكن صدقيني منذ أن دخلت أمك بيتنا وكلنا اعتبرناها ابنة هذا البيت، لا فرق بيننا وبينها، وأنا بالفعل أعتبرك ابنتي.

كانت نعمة تستمع إليها وعيناها لا تتوقف عن البكاء حتى أكملت عزة، وقالت: أمك تريدك أن تبحثي عن جدك وتخبريه أنها سامحته، لأنها تعلم أنه يشعر بالذنب تجاهها، ولكنها فقط كانت حزينة من ردة فعله، ولكنها كانت تحبه جدًّا وسامحته.

مسحت نعمة دموعها، وظلت تربط كل الأمور ببعضها، وقالت: أنا لا أحتاج للبحث عن جدي، إنه الرجل الذي أعمل عنده في المكتبة.

عزة: أحقًّا هذا؟

قالت نعمة: كأنكِ لم تعرفي ذلك؟

عزة: لا، لم أعرف، أنا جئت إلى القاهرة منذ أن تزوجت، فزوجي من القاهرة وعشت معه هنا، ولم أرَ والد أمك في حياتي سوى مرة، ولكن كانت تحكي عنه بكثرة، وعندما أخبرتِني اسم المكتبة كان الأمر غريبًا لي، ولكن لم أنتبه له كثيرًا وعقلي لم يربط الأمور. ولكن يا نعمة، الآن عليكِ أن تخبري جدك أن أمك سامحته وتجعليه يرفع هذا الحمل من عن كاهله.

نعمة: بالطبع سأفعل، وشكرًا لكِ على كل شيء فعلتيه لأجلي.

وظلت نعمة صامتة حتى وصلت إلى القاهرة، وذهبت مسرعة إلى جدها، وحين دخلت عليه وجدته جالسًا كعادته، ابتسمت ابتسامة حزينة، فسمع خطوات قدمها قادمة إليه، فهرولت إليه وارتمت بين ذراعيه وحضنته بشدة، وقالت: ألم تشتقْ إلي أيها العم؟

العم إدريس: بلى، اشتقت كثيرًا، ولكني أعاتبك على تركك لي دون أن تخبريني أين ستذهبين.

حكت له أين كانت وبما عادت به من هذا السفر، وسألها عن سر هذا الحضن، فالأمر غريب بالنسبة له، فحكت له كل شيء، وفرح كثيرًا لبقاء شيء من رائحة ابنته يعيش على الأرض، وحزن لوفاة ابنته كثيرًا، وطلب من نعمة أيضًا أن تسامحه لأنه لم يحاول أن يبحث عنها، فسامحته، وأخبرته أن أمها سامحته، وجعلته يتطلع على تلك الورقة المكتوب فيها: «رزقني الله نعمة، فأسميتها نعمة».

وأعطاها بقية الورقة وكان فيها: «المحب لكِ.. أبوكِ إدريس»، فابتسمت نعمة حين قرأت بقية الورقة، وفي أثناء حديثهما دخلت عليهم عزة، وقالت: هل انتهى دوري أيتها النعمة؟

ابتسمت نعمة وقالت: لم ينتهِ بعد، أنتما عائلتي بعد أبي وأمي، أحبكما كثيرًا، وشكرًا لأنكما هنا.

عاشت نعمة مع جدها وكانت عزة تذهب إليها يوميًا وتفارقها عند النوم.

الآن لم أكن من كنت في الأمس، فقد أخذت درسًا قويًّا منه جعلني أُصلح من حاضري، وأستبشر بمستقبلي خيرًا، وتعلمت من الظروف ما لم أتعلمه من غيرها، رسالتي لكم ألا تتركوا مجالًا للحياة أن تأخذكم في تفاهتها.

«نعمة»

بصمة قلم

قصة

عَودَةُ سَلَامٍ

الكاتبة

إسراء فتحي

إسمين

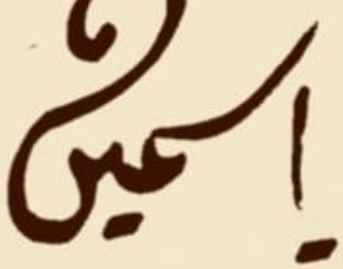

-الرسامة: سارة عصام.
من مقاصد السلام أنك منعت إفساد قلبك وقلوب من حولك خشية من الله وخوفاً عليهم

عَوْدَةُ سَلَامٍ

إسراء فتحي

تصحيح١: فاطمة صبري

في صباحِ يومٍ جديد تستيقظ فايزة على ضجيج صاخب وهي تتقلب على فراشها الكبير الواسع والمريح من جنبٍ إلى الآخر قائلةً: ألا أستطيع النوم قليلًا في هذا القصر الصحراوي؟! كيف إذًا لو كنت مقيمة في منزلٍ عاديّ تحيطه منازل متراصّة بين أهالي القرية الصغيرة؟! إنه يوم إجازتي يا بشر!

أجابتها السيدة سلوى الخادمة في أثناء تنظيفها غرفتها: ستصرخين من الورشات المحلية وضبابها، ولكن أحقًا تحلمين بهذا أم أنها مزحة؟!

الخادمة سلوى هي المسئولة عن احتياجات فايزة، تلك هي أوامر والديها، ويتراوح عمرها من ثلاثين إلى ثلاثة وثلاثين عامًا، وهي مستجدة معهم، ولم ترغب فايزة في السؤال عنها وهذا حال كل من يعمل في ڤيلا الصياد؛ لا تواصل، لا حديث ممتد أكثر من خمس دقائق، وجميع الموظفين يتغيّرون كل ستة أشهر على الأقل، كل ما تعلمه فايزة عنها هو أنها تعيش في حي صغير بمحافظة الجيزة.

نظرت فايزة إليها بدهشة ونهضت مسرعةً نحوها، وبينما كانت على وشك الإجابة عليها أتت والدتها إلى الغرفة، فصُدمت قائلةً: أمي!

والدتها: ما بكِ؟ هل رأيتِ شبحًا؟! ولماذا لم تنهضي حتى الآن؟ تعلمين أننا أصبحنا في اليوم التاسع والعشرين ولدينا حفل تكريم الليلة، وعقدنا اتفاقات وعقودًا جديدة، وعلينا إنجاز مهامنا، والحفل في غاية الأهمية لوالدك، سيأتي إلينا رؤساء مهمّون وزملاؤه من البنوك والشركات الأخرى.

صار حديث الأم يتبخّر شيئًا فشيئًا من عقل فايزة، وقالت في نفسها: ما الجديد؟ مقابلات، حفلات، تنافس شهري، لا يوجد ما يبهجني حقًا سوى مبادرات أبي الخيرية وعملي في المستشفى، عليّ أن أنجز عملي معهم سريعًا، ثم الذهاب إلى أخي في المبادرة إن لحقته.

عادت من شرودها وقالت لوالدتها: حسنًا يا أمي، لا تقلقي ها قد نهضت.

الدكتورة فايزة أخصائية في الجراحة والتجميل والحروق، هي فتاة في عمر السادسة والعشرين عامًا، لُقِّبت في العائلة بأميرة القصر، فهي تقيم في ڤيلا والدها الصياد بمحافظة الإسكندرية مع عائلتها وهم من الطبقة العالية، فإما أن يُروّجوا للحفلات فيها، أو يسهروا في الحفلات بالخارج، هكذا هي حياتهم.

أما هي فشخصية غريبة في بعض الأحيان، وترى وتعرف في أعماقها أن كل شيء يحدث أمامها خطأ، لكنها تسمّيه وسواسًا قهريًّا وتتغاضى عنه في لحظات، ورغم أنها اعتادت على حياتها، لكنها أصبحت عليلة منها، ومع ذلك تحبها، فمنها تتعلم وتدرك المزيد من التفاصيل، وتتعرف على شخصيات جديدة من حين إلى آخر، فهي تحلم بأن تثبت للعائلة أن كونها أميرة قصرها ليس حسب الجمال، والنسب، والحرية المطلقة فقط، بل تسعى للبحث عن الإنسانية، والوصول إلى الاحترام والتطوير الذاتي بين الجميع.

ذهبت فايزة لتستعد، ثم نظرت السيدة صفية إلى سلوى قائلةً: ألم أقل لكِ إنه ممنوع فتح أي حديث مع ابنتي؟ هيّا خذي طاقم التنظيف ذاك واخرجي من هنا، سأحاسبك فيما بعد، وسأخبر من يدلّلكم أن يضع حدًّا لهذا.

سلوى: لا.. لا تخبري سيدي شيئًا، ولن تتكرر مرة أخرى، أعدك بهذا وها أنا ذا ذاهبة.

صفية: هكذا إذًا نستطيع المرح بحق.

صفية النجار والدة فايزة، في عمر الخامسة والأربعين عامًا، شخصية غليظة القلب، سريعة الغضب وقوية، تحمل الكثير من العناد والخبث، متكبرة وتحبّ أن تجعل الآخرين يعيشون في حصار وذل، هكذا هي منذ الصغر، حتى والدها رحل وهو يائِس من حالتها.

عادت فايزة إلى والدتها بملابس المديرة التنفيذية قائلةً: ها أنا ذا مستعدة، بمَ سنبدأ؟

صفية: رائع، هكذا تكونين ابنتي حقًّا، هيّا قد رتبت القائمة و...

لم تكمل السيدة صفية حديثها؛ حيث قاطعها هاتف فايزة وهو يرن.

فايزة: عذرًا أمي، سأجيب وأعود في الحال، لن أتأخر.

صعدت فايزة إلى غرفتها مسرعةً، فهذه المكالمة جاءت لها من المستشفى، ثم أجابت: معك فايزة يا زينب، هيّا قولي بسرعة، ماذا تريدين؟

زينب: لا أعلم ما أقول لكِ، ولكن هناك حالة طارئة، مريضة جديدة أتت إلى قسمنا ولا تسمح للدكتور لؤي بمعالجتها، وحالتها خطيرة لا يمكن التأجيل، المريضة طلبت دكتورة نسائية، وتعلمين أن حنين في إجازة سفر، وأنا لن أستطيع وحدي ولا أحد آخر متمكّن هنا.

فايزة: ويحك يا زينب، هل ذلك أوانه؟! لدي اليوم حفل مهمّ.

زينب: أعلم أعلم، لكن ما ذنبي! إن علم المدير بهذا التقصير أو حدث لها شيء سيُعنّفنا جميعًا.

فايزة: معكِ حق. حسنًا، أدخليها غرفة الطوارئ وأنا سأتصرف وآتي إليكِ.

وبعد دقائق جاء اتصال عبر الاسكايب للسيدة صفية؛ فأجابت: فايزة، هل خرجتِ دون علمي؟! إلى أين؟!

أومأت فايزة برأسها ثم قالت: لا تغضبي أمي، المساعدة زينب اتصلت بي، وهناك حالة طارئة، ويريدونني في أسرع وقت، وكنت على عجلة من أمري، وها أنا ذا أحدّثك من داخل السيارة في الطريق. لا تقلقي، السائق معي وسننجز المهمة، وسآتي إليكم مساءً.

صفية: كفى، اسخري مني كما تشائين وكوني الدكتورة المنقذة بدلًا من أن تكوني المديرة التنفيذية وتساعدين والدك، أنا لا أعلم لماذا اخترتِ هذا المجال بالذات، هناك الآلاف من الأطباء، تلك السماعة ماذا سنفعل بها؟! صحيح، لا فائدة منك، وعلى كلٍّ عليكِ حضور الحفل ولا نقاش آخر في هذا الأمر، أهذا واضح؟

فايزة: حسنًا يا حنونة القلب.

لم تنصت لها السيدة صفية وقطعت المكالمة قائلة بسخرية: أميرة قصر!

أغلقت فايزة الهاتف وبدأت تحدّث نفسها: بمَ أجيبك يا أمي؟ في هذه السماعة أرى الإنسانية وأدرك مسئوليتي تجاه ضماد جراح المرضى وابتسامتهم في النهاية ودعاءهم لي، تعلمت في هذا المجال أن الشفاء فقط بيد الله وليس بيد البشر، سماعتي سبب لأسمع بها آلام منها في البدن، ومنها خفايا نفسية تريد السلام فقط، حينها أتذكر حالي على حقيقتها وأفهم المدى بين ثمن الجمال والسلام. التنسيق كان وصية جدي، لم أعلم ما كان يقصد بطبيبة الرحمة إلا عندما تعايشت مع ظروف هؤلاء المرضى، بمَ أجيبك عن كل هذا وأنتِ لست بقلب أم؟ لا عليكِ يا فيّوز، فلنستنشق بعض نسائم الرياح لعلّها ترطب على قلوبنا من آفات حريقه.

في القيلا السيدة صفية تذكرت أنها تريد مالًا لتكمل تجهيزات الحفل، فقامت بالاتصال على ابنها الذي يعمل في المبادرة الخيرية: أرسل لي عشرة آلاف وسأعيدهم لك قريبًا الضعف، ولكن تمهّل وافعل هذا بحذر.

مالك: لا تخافي، فأنا لست بالتيّه مثلكم.

صفية: مالك، احترس يا بُني.

مالك: حسنًا، اهدأي.

مالك الصياد عمره اثنان وعشرون عامًا، لم يدرس بِجِد، وهو -كما يقولون- الولد المدلّل، وبما أنه مدلّل، فصفاته تشبه السيدة الوالدة، أصبح يعمل معهم وهو في سن العشرين.

أنهى مالك الاتصال مع والدته، وذهب بشروده إلى السنتين الماضيتين في القيلا.

(استرجاع).

صفية: صياد، ماذا سنفعل؟! أسهم بنودنا ستخسر، كل هذا بسبب المبادرة التي أنشأتها!

الصياد: أهي الأسهم أم الآلاف التي تُنهب من حين إلى آخر!

صفية: انسَ المبلغ الذي لا يساوي شيئًا، فلنركز على أمر البنك.

وبعد دقائق من التفكير، نظرت إليه وأكملت حديثها: لدي فكرة، ما رأيك في أن نستثمر جزءًا من التبرعات لبضع سنوات؟

الصياد: بمَ تهذين يا صفية؟! هذه تبرعات أناس فقراء وأيتام، وإن حدث لها شيء، فلن يبقى لي وجود، أنسيتي أن هذه المبادرات هي التي ضاعفت أسهم الشركة منذ سنتين؟ هذه المبادرات تعني عائلة نسب الصياد الآن لا البنوك، تذكري هذا.

صفية: وأنت تذكر هذا، إن لم نحل المشكلة، فسيحجزون على الأملاك والقيلا، ولن أسمح بحدوث هذا.

عمَّ الصمت بينهما، ثم نظر الصياد إلى زوجته صفية قائلًا: ماذا تريدين أن أفعل؟

صفية: هكذا إذًا.

الصياد: صفية، لا تختبري صبري.

صفية: نعم اهدأ اهدأ، سأرتب الأمر، ولكن أنت أيضًا لا تغيّر رأيك وتجعلني أغضب، فقط تذكر ابنتك فايزة وابنك مالك وأحوالهما إن أصابهما سوء.

الصياد: مالك!

صفية: بُني، هل تريد شيئًا؟

مالك: ما بكما هذه المرة؟

صفية: صياد ابنك بلغ سن العشرين، ويبدو أنه حان الوقت ليحمل المسئولية.

الصياد: هل جننتِ؟ مالك بنيّ، لا يوجد شيء، اذهب إلى غرفتك.

صفية: بُنيّ، سنذهب إلى السجن إن لم نساعد بعضنا بعضًا.

مالك: ماذا؟! كيف يا أمي؟!

صفية: سيُحجز على أموالنا إن لم ندفع خمسمائة مليون جنيهًا خلال سنة، وعلينا جمع المال من أي جهة كانت، وأيضًا أيًّا كانت الطريقة.

مالك: بسيطة أمي، قد سمعت فكرتك منذ قليل، وهي باهرة حقًا.

الصياد: ماذا؟ هل أنت راضٍ عن أخذ المال من تبرعات الفقراء؟

مالك: إن كان هناك جهة مفتوحة وليس لدينا طريقة أخرى، فنعم. وعلى أية حال هذا يُسمى اقتراضًا لبضعة شهور، وبعدها سنعوضهم بمكاسب أيضًا، أليس كذلك يا أمي؟

صفية: صحيح بالطبع يا شِبلي، هذا هو بُنيّ الذكيّ ولا أحد مثله، والآن فلنبدأ المرح بحق.

(عودة).

أكمل مالك حديثه في نفسه وهو يحوّل المبلغ إليها مبتسمًا: قد فزت بهذه الفرصة الذهبية لأدير هذا المكان بنفسي، وكل الأوراق أصبحت تحت يداي وما زلتِ تخافين يا أمي؟! فأنا ولدك، قد انتهزت الفرصة قبل عرضها على أبي لكنك ساعدتِني كثيرًا بوضعها على الطاولة، وأي مال يُسحب من هنا ستظنون أنه أُخذ للبنك أو لمصاريف المعيشة.

وصلت فايزة إلى قسمها في المستشفى وفي طريقها للذهاب إلى غرفة الطوارئ، شاهدت أهل المريضة بالخارج، فاتجهت إليهم لتطمئنهم، ثم مدت يديها لكي تسلّم: مع حضرتك الدكتورة فايزة الصياد.

عاد إلى الوراء ثم وضع يده على صدره قائلًا: شكرًا لك، من فضلك عندما تنتهين أخبرينا بوضع أختي.

تعجبت فايزة من الأمر والطريقة، بالإضافة إلى أنه وهو يحدّثها ينظر إلى الأرض بالأسفل، لكنها لم تهتم وأجابته: نعم، لا تقلق ستكون بخير. ثم اقتربت من والدتها وقالت لها: ستتحسن، أعدك.

ضمّتها إليها ثم أخذتها وأجلستها على الكرسي، وأكملت: فقط كوني قويّة من أجلها، ثم أخرجت من حقيبتها مشروبًا وأعطته لها.

والدة المريضة: ابنتي تحمّلت الكثير من العقبات، وتألمت كل أنواع الآلام ولم تستسلم أبدًا، عزمها وطريقها إلى الله هو الذي يمدّني بالقوة بفضل الله ثم بفضل ثباتها، أخشى أن أخسرها الآن.

فايزة: من حديثك عنها يبدو أنها فتاة مخلصة لله، وهو بالتأكيد لن ينساها.

ثم اتجهت نحو أخ المريضة وأشارت لوالدته قائلةً: من فضلك خذها واتجها إلى غرفة الاستقبال، وعندما ننتهي سنناديكم، فالوقوف هنا ممنوع، وكما ترى هؤلاء مرضى مصابون بحروق من الدرجة الأولى والثانية، أي إنها حالات خطرة ووالدتك لن تتحمل هذه المشاهد.

أخ المريضة: بالطبع بالطبع، حسنًا.

وبالفعل أخذ والدته وخرجا معًا، وفجأة سمعت فايزة في الداخل صوت المريضة تصرخ من الألم وتقول: لا، لن أستطيع، لن أسمح بهذا، قلت لكِ يا ممرضة ألم تفهمي بعد؟! يا الله أعني على هذا الطريق.

حتى دخلت عليها فايزة قائلةً: اهدأي.

يا دكتورة زينب اشرحي لي، ماذا يحدث هنا؟

زينب: المريضة اسمها مريم توفيق، عمرها ثلاثون عامًا، وهي آتية من عيادة العظام، كانت تفكّ جبيرة قدمها إثر عملية، ثم اكتشفَتْ طبيبة تدعى (...) وجود بؤرة دائرية في ظهرها وأحالتها إلى هنا كما أخبرتك في الهاتف، ومنذ ذلك الحين قد وصفت حالتها للدكتور لؤي وقال لي إن حالتها تستدعي عملية ترقيع، وجئت لأقنعها بهذا.

المريضة مريم: هي لا تفهم جدّية الأمر، تقول لي إن دكتورًا سيجري العملية وما شابه.

فايزة: حسنًا اهدأي من فضلك، ها أنا ذا هنا، معك الدكتورة فايزة من قسم الجراحة والتجميل.

بينما تتحدث معها الدكتورة فايزة وقعت مريم فاقدة للوعي إثر آلامها وصراخها المستمر.

فايزة: خذي عينة منها إلى المختبر فورًا وأخبريني بزمرة دمها وكافة الفحوصات عنها حتى أنتهي من التغيير على الجرح بشكل مؤقت، ثم سأخرج وأتحدث مع عائلتها عن أمر العملية.

زينب: حسنًا.

وبعد قليل خرجت فايزة للعائلة عند الاستقبال قائلةً: أريد أن أعلم تفاصيل أكثر عن حالتها، فمن فضلكما تعاليا معي إلى غرفتي لكي نتناقش في الأمر، وأنتِ يا دكتورة زينب استدعي لي الدكتور لؤي في الحال.

فايزة: ما موضوع العملية التي أُجريت في قدمها؟ أهي شرائح ومسامير، أم جبيرة، أم أي شيء؟

والدة مريم: منذ ثلاثة شهور وقعت في حادثة وحالتها ما بين المتوسطة والبسيطة، وكان هناك كسر في يدها اليسرى وأجرت عملتي جبيرة في قدمها.

أخ مريم: صحيح، لكن الجبيرة كانت شاملة مثل البنطال بالضبط، وهي كانت تشتكي لنا من حكة في أسفل ظهرها، كنا نعتقد أنها تتصنع لكي تفكّه قبل موعد الانتهاء الذي تم تحديده، وعندما ذهبنا إلى الطبيبة التى أصرّت عليها أيضًا حدث ما حدث وأحالتنا إلى هنا، هل هي بخير؟

دخل عليهم الدكتور لؤي، قائلًا: عذرًا، هل تحتاجين شيئًا، دكتورة فايزة؟

فايزة: نعم، تفضل دكتور. حسنًا، فهمت يا أستاذ...

أخ مريم: رائد توفيق.

فايزة: أستاذ رائد هذا الأمر طبيعيّ ولم يحدث بسبب فكّه بطريقة خاطئة، فلا يوجد دلائل على هذا، وهذه المدة التي أخبرتمونا بها مدة طويلة، يبدو أنها لم تتحرك بها مدةً طويلة بالإضافة إلى أنها جبيرة بنطال وهذا ما أدى إلى تلك البؤرة، نسأل الله العافية لها والجميع، الآن هي تحتاج إلى عملية ترقيع وستكون بسيطة إن شاء الله.

لؤي: كما وصفت لي زينب وأخبرتها بذلك، وعلينا بدء العمل في أسرع وقت، لكن لم أفهم لمَ ترفض؟

لوهلة نظرت فايزة إليه بصمت، ثم إلى دقات الساعة، وتذكرت أن موعد الحفل قد اقترب، وبدأت تحدّث نفسها: ماذا عساي أن أفعل؟ لا، لن أتركها وأذهب، هذه أول مرة سأنصت إلى حديث وسواسي، لكنه ليس بخطأ!

رائد: دكتورة فايزة.. دكتورة فايزة، أريدك لحظة من فضلك.

فايزة: عفوًا، أعتذر.

حسنًا، معك تفضل.

رائد: مريم شخصية ملتزمة دينيًّا وأخلاقيًّا، قد تربينا على ذلك منذ الصغر، فإذا سمحتِ أن تقومي أنتِ بهذه العملية وليس بتدخل دكتور لؤي، ففي وقت الحادث الأول عندما أفاقت حزنت كثيرًا عندما علمت أن دكتورًا هو الذي أجرى لها العملية، ولا أريد أن أكرر هذا الأمر، أعلم أنه ضروريّ ويجوز لحالتها، لكنها ثابتة على هذا القرار ولن تغيّره بتاتًا.

فايزة: لا أعلم من أي جهة أو لماذا صدر قراركم هذا، لكنه يبدو أمرًا شخصيًّا، وأنا سأحترمه ولن أتدخل فيه، حسنًا.

أتت والدة مريم من ورائها قائلةً: دكتورة، كتب كتاب ابنتي غدًا، ما تفاصيل تلك العملية كي نخبر خطيبها؟ فهو لا يعلم بعد.

رائد: أمي، هذا ليس وقته، سأخبره ونؤجله.

فايزة: يُستحسن بالفعل أن يتأجل، صحيح أن العملية بسيطة، لكن تحتاج إلى مدة أسبوعين من الراحة بعدها، وليس التجهيز للزفاف وما شابه.

والدة مريم: لا لا، ليس الزفاف فقط؛ سيُعقد عليها، ستكون هذه هي المرة الثالثة التي تُأجل فيها، أي إن الأمر صعب وسخيف.

فايزة: كما تشاؤون، هي الآن ستستيقظ ويجب أن تطمئنوها أنني هنا وليس الدكتور لؤي، والآن بعد إذنكم. دكتور لؤي، هيَّا بنا.

خرجت فايزة والدكتور لؤي معًا من الغرفة نحو الاستقبال، وذهب الأهل إلى غرفة مريم.

فايزة: أولًا يا دكتور لؤي عندما أتحدث مع أهل المريضة إياك أن تتعامل معي كأنك المرشد والرئيس. ثانيًا، المريضة -قبل أن تراك- ترفض التعامل مع الأطباء الذكور، هي بتلك الحالة وأنتَ تسأل أمام الأهل عن سبب رفضها؟! ربما تشعر بالاستحياء أو ما شابه، وبالأحرى ما شأننا نحن في هذا؟!

لؤي: أولًا، أنا الدكتور لؤي، في التاسعة والعشرين من عمري، أي عليكِ احترامي سنًّا على الأقل.

ثانيًا، بما أنك العالمة هنا لمَ استدعيتني من الأساس؟

زينب: مهلًا مهلًا، ما بكما ولماذا تتشاجران؟

لؤي: أأنا أُجيب أم أنتِ؟

فايزة: لست متفرغة مثلكما؛ لدي عملية أُنجزها، وأنتِ استعدي لتكوني معي، وجهزي غرفة العمليات وأحضري مساعدة من المتدربين معك.

زينب: وراؤكِ يا مديرة.

وأنتَ اهدأ، أنسيت أنها كانت في إجازة اليوم ولديها حفل ومع ذلك أتت لتساعدنا؟! وها هي ذي من الواضح أنها لن تذهب، عليك تحمّل ظروفها.

لؤي: لا علاقة لي بهذا، أتساءل فقط لمَ تحرجني هكذا؟! صحيح، إنها غليظة القلب مثل عائلتها، علامَ يتفاخر هؤلاء!

زينب: هذا هو الفرق بينك وبينها؛ هي تركز على الأمور الهامة، وأنت تدقق في كل شيء، هي محقّة في طريقتها معك.

(في المستودع).

زينب: فيّوز، أنتِ هنا وأنا أبحث عنكِ.

فايزة: يبدو أن الحفل فاتني يا زوزو.

زينب: لا تحزني، لعله خيرًا.

فايزة: أعلم، وبالعكس أشعر بشيء مريح في قلبي، لكن ما أخشاه هو ردة فعل العائلة، ها هم أولاء يتصّلون، اصمتي.

حاولت فايزة أن تأخذ نفسًا وتستجمع قوتها كي تستطيع أن تخبرهم: مرحبًا أمي.

صفية: لِمَ تجيبينني بمكالمة صوتية؟ لا تقولي لي إنك ما زلتِ في المستشفى!

فايزة: في الحقيقة سأُجري عملية بعد قليل، ولن أستطيع المجيء.

أمي.. أمي هل تسمعينني؟ إنها أغلقت الخط.

زينب: حسنٌ ما فعلَتْ. (قالتها مُداعِبَةً).

فايزة: زينب، كفاكِ هيّا اخرجي.

زينب: حسنًا تمهلي، صحيح إن السيد لؤي حزين، يا ويلي.

فايزة: أتصدقين أنني نسيته، سأذهب وأرضيه الآن.

زينب: لا لا، اتركيه هكذا.

فايزة: لا تقولي هذا، فأنا أخطأت وكنت غليظة بالفعل، وهو لم يفعل شيئًا ليستحق هذا، فقط أنا تذكرت توقيت الحفل وكان أمامي حينها، لذا أفرغت غضبي عليه.

زينب: تعالَ يا أبله، أعلم أنك وراء الباب.

فايزة: أحقًا دكتور لؤي؟!

لؤي: نعم.

زينب: أطفل هذا أم ماذا؟

فايزة: زينب، اتركيني وحدي لأن يداي عطشة وتريد ضرب أحدهم، اذهبي وجهزي غرفة العمليات، ولا تنسي أكياس الدم.

زينب: يا ويلي، إذًا أنا ذاهبة.

فايزة: يبدو أنك سمعتَ ما قلتُه منذ قليل، وتعلم أيضًا أنني لن أعيد الحديث مرتين، هيّا بعد إذنك.

لؤي: لا، أريد سماعه مرة أخرى.

فايزة: حسنًا أعتذر يا دكتور لؤي، أهكذا جيد؟

لؤي: أنا آسف.

فايزة: من أين خرج هذا الاعتذر الآن؟

لؤي: ليس بشيء، ولكن يمكنك أن تعدّيه اعتذارًا شاملًا كل شيء، كما تريدين.

فايزة: أضحكتني، هيّا أفسح الطريق؛ لدي عملية ومواجهة كبرى وشيكة ستحدث.

لؤي: سأدافع عنكِ.

فايزة: هل أنت مُصرّ على ضحاكي؟ وبالأحرى ماذا تريد؟

لؤي: أن نكون صديقين، وليس في العمل فقط، بل في الحياة عامة، لعلك تفهمين قصدي يومًا ما.

نظرت إليه فايزة باستنكار، ثم أكمل وقال: حسنًا، لا تغضبي مرة أخرى، صديقان فقط.

فايزة: زينب تتصل، بعد إذنك يا دكتور لؤي.

في ڤيلا الصياد في أثناء أجواء الحفل المليء بالرجال والنساء وأبنائهم، وجميعهم من العائلات الفاخرة من أصحاب بنوك، وناشطي أحزاب، ومبادرات مختلفة وإلى غير ذلك، وصحفيين أيضًا يوثّقون هذا الحدث، فهذا الحفل هو خبر الغد.

الصياد: أين فايزة؟ التكريم سيبدأ.

صفية: المنقذة لديها عملية طارئة ولن تأتي، لكني أرسلت الحارس ليأتي بها في الحال.

الصياد: حسنٌ ما فعلتِ، مَن أرسلت لأرسل معه أحدًا آخر؟

صفية: ...

ظهر القلق على وجه الصياد، وحاول أن يُفلت من زوجته بعد سرقته هاتفها، ثم أخذه وصعد إلى الأعلى وأرسل به رسالة:

«عُد، فقد عادت الأميرة إلى الڤيلا».

الصياد والد فايزة ومالك، يبلغ من العمر واحدًا وخمسين عامًا، شيب رأسه هو الذي يذكره بأنه راحل من هنا، يخشى على ابنته من حقد زوجته واتهامها لها بأنها ليست مطيعة، لأنها لم تنصت إليها وقت اختيار التنسيق، لذا يحاول حمايتها من وراء زوجته.

وبعد ساعات من العملية، دخلت فايزة إلى غرفة مريم لتطمئنّ على حالتها.

فايزة: كيف حالك يا عروس؟

مريم: الحمد لله يا دكتورة.

فايزة: نعم، التقارير تقول إنك بأفضل حال، تحتاجين فقط المدوامة على الراحة.

مريم: هذا بفضل الله ثم بفضلك، قد أخبرتْني والدتي وأخي عمَّا فعلتِه معهما ومعي، شكرًا لكِ.

أما حديثك عن الراحة، فلا مكان لها هنا، فهذه هي الدنيا الفانية، جئنا إليها ونوقن أن أرواحنا مِلك لله، وبينهما مهمة حصاد، علينا إتمام زرعه بجِدّ واتقان.

فايزة: عفوًا، صحيح معك حق.

نسيت أن أخبرك أن لدي هدية لكِ، ولكن عديني أولًا أنك لن تصرخي كما فعلتِ عند لقائنا الأول.

ضحكت مريم ثم قالت: اعذريني على صراخي فيك، فهذه تكون حالتي عندما يُجبرني أحد على شيء غير معتادة على فعله، فكان ذلك يشعرني بأني سأُغضب الله.

نظرت إليها فايزة وهي تقول في نفسها: ما طبيعة هذه الفتاة؟ حديثها وكل شيء فيها مختلف، هل إلى هذه الدرجة علاقتها مع الله قريبة وتستحي منه؟! فما حالي أنا معه! وما غرابة ذلك الأمر! حتى أخوها رائد لم يسلّم عليّ، وكان يبتعد عندما أحدّثه وينظر إلى الأرض أو ينظر جانبًا وليس إليَّ! ووالدتها التي من المفترض أن تكون أمانًا لها تقول إنها تصمد لثبات ابنتها! أشم رائحة عاصفة كبرى آتية لتصدمني من تصرفات تلك العائلة العجيبة.

ثم أجابتها فايزة: حسنًا تفهمت، والآن هل أنتِ مستعدة؟

مريم: عليكِ أن تعلمي أني أخشى المفاجآت، لكن نعم.

فايزة: هذا واضح، تفضلوا بالدخول.

كانت والدة مريم وأخوها وخطيبها.

والدة مريم: ابنتي، حمدًا لله على سلامتك.

رائد: ضي عيوني، أخفتِنا كثيرًا، حمدًا لله على سلامتك.

فايزة: انتهى وقت الخوف يا أستاذ رائد وحان وقت الاحتفال، ألن تخبرها أنت يا أستاذ عز الدين؟

عز الدين: حمدًا لله على سلامتك يا آنسة مريم، صراحةً نحن مصرّون على انعقاد عقدنا هنا، ما رأيك؟

مريم: أأنتم تتحدثون بجدّية؟ أخي، أمي! لا، أنقذيني يا دكتورة فايزة منهم.

فايزة: لا، مهمتي انتهت في هذه الرحلة، الآن عليّ الذهاب وأترككم في الخصوصية على راحتكم.

مريم: لا، أنتِ تهذين، لا يوجد خصوصية وما شابه، أساسًا كنتُ سأدعوكِ لتحضري، قولي لها شيئًا يا أمي، إن ذهبت فلن أوافق على هذا الزواج.

والدة مريم: لن أناديك هذه المرة بصفتك دكتورة فايزة، بل كأخت لابنتي مريم، هيا شاركينا الفرحة أنتِ وزملاؤك معًا.

رائد: معهم حق، والآن أنا وعز سنذهب لنرتب الأمر.

والدة مريم: خذني معك يا بني.

فايزة: إذًا بما أنكم مجتمعون عليّ، يبدو أنه لا فرار لي من هنا، حسنًا أنا معكم.

مريم: إذًا اتفقنا، لا تتأخر يا أخي.

خرج الجميع ولم يبقَ سوى مريم وفايزة معًا.

فايزة: أتقصدين بالتأخير تأخير الأخ حقًا، أم صاحب النصيب؟ هيّا اعترفي.

مريم: الاثنان.

فايزة: إذًا لمَ لا تدلّلينه أمام الجميع كالفتيات الأخريات اللاتي تعلو أصواتهنّ بالصراخ عليه؟ ولاحظت أنه أيضًا يناديكِ بآنسة.

مريم: لأننا منضبطون بضوابط الخطبة الشرعية.

فايزة: ...

مريم: حسنًا سأشرح لكِ، في ديننا نحن مأمورون بالالتزام بشروط وضوابط واجبة بين الرجل والمرأة، ولا يُقتصر على الاحترام، ولا يعني ذلك أننا نمنع اللقاءات ونتعامل بتشدد، بل الدين يسر، قال ﷺ: «ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان»، [رواه أحمد والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما].

وهذا الأمر يعمل على تحصين قلبك وفطرتك الحميدة من الآفات، والحزن المفرط، والتعلق المستدام، وأحاطك بتلك الضوابط التالية:

- منع الخلوة: وهي وجود رجل وامرأة أجنبية عنه في موضع لا يراهما فيه أحد.

- توقي التَّماسّ: وهو التلاصق أو التراص بالأبدان بين الرجل والمرأة الأجنبية عنه، حذر الإثارة والفتنة.

- تجنب التبرج: وهو الكشف عما أمر الله ورسوله بستره من البدن، إذ يجب على المرأة حين اجتماعها بالرجال غير المحارم أن تستر نفسها.

وأيضًا يجب على المرأة أن تتحكم في حديثها وحركاتها.

وأنا وعز الدين قد فعلنا هذا خلال سنتي الخطبة الماضيتين.

فايزة: مدهش حقًا رغم أنه صعب، أو صعب بالنسبة لي فقط لأنني لأول مرة أعلم به.

مريم: لا عليكِ، كنت مثلك في السابق، وعليَّ قول الصدق، حتى بعد علمي به كان صعبًا لنا في تنفيذه، واحتاج إلى جهد نفسي شديد، لكن بفضل الله ومعيّته لنا استطعنا، وها هو ذا الأمر على وشك الإتمام.

فايزة: صحيح، Congratulations!

هل يمكنني أن أسألك سؤالًا أم سأتعبك؟

مريم: لا لا، تفضلي اسألي، أنا أحببتك في الله، وأرى أن لديك أسئلة كثيرة، هل أنا محقة؟

فايزة: نعم، فالتي أمامك يظن الجميع أنها فتاة غنية ولا يهمها شيء بما أن عائلتها بتلك الصفات، وتحمل كل الجمال... إلخ، لكن تصاعد الأمر فجأة من وقت وفاة جدي؛ حيث أصدر المحامي لكل منّا وصايا سرية كما قال المحامي، ومنها حصولي على لقب الممرضة، ما زالت العائلة تظن أنها رغبتي فقط، لم يعلموا أنها الوصية السرية، كعادتهم لم يكترثوا لها سابقًا، منذ تنفيذي الوصية أصبحت أرى الحياة بوجهين؛ تارةً فيها بعض نسمات السلام عندما ألتقي مع المرضى، وتارةً أخرى عندما يتعاملون معي كأني ارتكبت جريمة لا تُغتفر مهما تعاملت معهم في ذاك القصر بالحسنى، ومع هذا فالآن قد علمت أن الجريمة الوحيدة هي أنني أطيعهم في الحفلات المختلطة والسهر معهم، وأطيع نفسي الخاطئة في تعاملي مع الناس ما بين الحرية والاحترام النصفي كما يقولون، بعد كل هذا أتساءل بمَ أبدأ لأسير في الطريق مثلك؟ واعذريني، فأنا أحسدك على هذا السلام الداخلي، والتأني، واتخاذك للأمور بكل هدوء، وسلاسة، وبساطة.

أتساءل هل عليّ هجر عائلتي؟ أثق بأنك ستجاوبينني بصدق، لكن قولي كل شيء، وما الواجب الذي عليّ أن أفعله؟

وفجأة دخلت زينب عليهما: أعتذر، ولكن يا فيروز أردت أن أذكّرك بشيء.

فايزة: قولي.

زينب: موعدك، هل انتهيتِ لتذهبي إليه؟

فايزة: أتقصدين الحفل؟! نعم انتهيت، لكن لن أذهب؛ لدي حفل آخر، وبالأحرى أنتِ من المدعوّين أيضًا، أليس كذلك يا أختاه؟

مريم: بالتأكيد.

صحيح دكتورة زينب، أعتذر عما صدر مني عند لقائنا، سامحيني في حقك.

زينب: لا عليكِ. نعم علمت به، وسأترككما لأجهّزه ثم آتي.

وقبل أن تذهب زينب نظرت إلى فايزة وكأنها تراها لأول مرة.

مريم: أعطني يدك.

تعجبت فايزة من طلبها لكن استجابت لها، فأعطتها مصحفًا صغيرًا وأشارت لها قائلةً: ابدأي من هنا، خذيه بقوة، وصلاتك اجعليها مناجاتك، وتسلّحي بالدعاء والصبر، الله يحبك يا فتاة فسلّمي أمرك إليه، أسئلتك هذه تعني مولدك الجديد، ومن الواضح أن جدك رجل حكيم يعلم أنك ستعانين فيما بعد إن ظللت تحت عصمة وصفات عائلتك، وليس لدينا إلا الدعاء لهم، لذا اختار لكِ هذه المهنة تحديدًا ليبدأ قلبك بشحنه نحو مناجاة الرحمة للمرضى وظروفهم العصيبة، ومن لطف الله بكِ ورحمته أن أعانك على التوفيق والقبول به ومدّ بصرك إلى سبل وخطوط رفيعة ليرشك بالصواب، يا فيّوز إنها عودة سلام.

ها قد وصلت فايزة إلى ڤيلا الصياد بعد انتهاء عقد مريم التي كانت من أجمل وأنقى الحفلات، وفي أثناء دخول فايزة من البوابة قالت: يا الله، لا أعلم ما المُخبأ لي في الداخل، لكني أثق بأنك ستعينني بحولك وقوتك، أرجو لهم أيضًا العودة إليك عمّا قريب.

عندما دخلت فايزة كان القصر شبه فارغ، لا ترى أحدًا بالمكان سوى والدها الذي التقى بها مبتسمًا ابتسامة خفيفة، وحوله بعض الحاجيات من الأثاث.

فايزة: ماذا حدث يا أبي؟ وأين أمي، وأخي، والعمال، والعاملات، والحرس؟

الصياد: الحارس هو الله يا ابنتي.

فايزة: إذًا أفهم أنه في ليلة وضحها قد...

الصياد: نعم.

وضما بعضهما بعضًا بشدة، ثم أعادت سؤالها: وأمي وأخي، أين هما؟

الصياد: والدتك وأخوك منذ سنوات كانا...

وبدأ يقصّ عليها الحقيقة كاملةً عن أمر البنك، وما كانوا يفعلون بأموال الفقراء.

فايزة: ماذا؟! بالتأكيد أنا في حلم.

الصياد: ليته كذلك، وليتني لم أنصت إليهما، عار عليّ أنني وثقت بها وصدقت أنها تحبّني، والابن الذي كان يسرقني قبلها، فقط لأنني كنت أؤمّن حياتكما مستقبلًا، وهو في النهاية كان يخطط ليهرب بأموال المحتاجين إلى الخارج!

فايزة: الآن فهمت لمَ كل هذا النشاط رغم عدم اهتمامه بالدراسة وذهابه دومًا إلى المبادرة، عندما كنت أدخل عليه أرى ابتسامة خبيثة وأشك فيه، لكني قلت إنها وساوس نتيجة تصرفات والدتي معي.

الصياد: نعم، جدك كان يعلم أن ابنته لن تتغير، وقالها عدة مرات: «لا صفاء لنا وسط جشع قلبِك»، وهذا الجشع قد وصل إلى أخيكِ.

فايزة: أين هما الآن؟ وماذا فعلت بالأثاث والعمال؟

الصياد: وسط الحفل كانت الشرطة معنا لتلقي القبض على أحد من المدعوّين في قضية نصب، وعندما رأت أمك وأخوك هذا هربا معًا، ومن ستر الله أن الشرطة لم تتحرَّ بعدُ ما فعلناه، ثم أخرجت الجميع، وسأصلح كل شيء وأسلّم نفسي، لكن أولًا سأسدد أموال المبادرة بقدر استطاعتي ببيع كل ما لا يهمّ، خذي هذا المال، صحيح إنه قليل، لكن سامحيني يا ابنتي.

فايزة: أبي! أُقدّر الحل الذي تقوله وإصلاحك للأمر، لكن لا تُسلّم نفسك؛ أنت تقول إن الشرطة لم تتحرَّ بعدُ.

الصياد: لا فائدة من الهروب، وإن هربت من الشرطة، فكيف سأهرب من قلبي؟ هذه ليست وساوس يا فايزة، هذه صيحة الضمير يا ابنتي، والإصلاح يجب أن يصل إلى ذروة المُفسِد، وإلا سيحدث كما حدث لمالك.

سلوى: سيدي لا تتركنا، فأنا لم أذهب من هنا بعد ولن أفعل، سأكون معكما في أي شيء.

الصياد: لا، هيّا اخرجي، وخذي فايزة معك وارحلا من هنا، فقد اتصلت بالشرطة وهم على وشك المجيء.

فايزة: أبي.

الصياد: هذا أمر يا سلوى، هيّا.

وبعد أربع سنوات في صباح مشمس مع أجواء الهواء المتجددة، هناك تغريدات عصافير تختلطه أصوات ورش بمختلف المجالات، ها هي ذي فايزة تعيش في منزلٍ صغير مع سلوى.

سلوى: فايزة، هيّا استيقظي، الفطور أصبح جاهزًا يا فتاة، انهضي، أنسيتِ اجتماعك اليوم؟

فايزة: حسنًا حسنًا، نهضت يا مزعجة.

سلوى: ويحك ويحك! لكن لا، لن أصيح فيكِ، فاليوم مهم لك للغاية.

صمتت فايزة وتذكرت هذه الكلمة المتكررة من والدتها منذ أيام القصر عن الحفلات، ثم قالت: كلا، إنها فانية ليس بشيء مهم هنا.

سلوى: هذا ليس وقت الذكريات، هيّا أريحي عقلك وغذّيه بهذا الفطور الشهيّ.

فايزة: لا يهمك سوى الأكل، آه منك.

انتهت فايزة من الطعام، ثم بدأت تبدّل ملابسها واتجهت إلى سلوى قائلةً: هل ينقصني شيء؟

سلوى: نعم.

فايزة: لا تستطيعين الكذب عليّ، وأعلم ما تريدين.

سلوى: إذًا خذيني معك، ألن تشكريني على اقتراح موعده بالأساس؟

فايزة: صحيح، حسنًا هيّا بدّلي ملابسك قبل أن أغيّر قراري.

سلوى: هذه هي طبيبتي الحنونة، أحبك. سأكون جاهزة في غضون خمس دقائق.

تتصل فايزة على أحدهم قائلةً: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قد اشتقت إليكِ كثيرًا، أخبريني كيف حالك وحال ابنتك؟

مريم: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، الحمد لله جميعًا بخير، وأنتِ كيف حالك يا فيّوز؟ وكيف حال قسمك يا مديرة؟

فايزة: لدي اليوم اجتماع معهم وأشعر بشيء غريب منذ الصباح وأتذكر ما مضى، يبدو أنه قلق نتيجة قراري اليوم.

مريم: فلنتواصل عبر الاسكايب.

فايزة: حسنًا.

مريم: قرارك الذي أخبرتِني به أمس أكثر من رائع، وسيجعل الكثير يعيد تفكيره، أدعو الله أن يوصل رسالتك للجميع، ليس من داخل قسمك فقط، بل العالم أجمع.

فايزة: ويحك إنه اجتماع عاديّ، ومع ذلك سأتفاءل، المهم كيف أبدو؟

مريم: اللهم بارك، هذه المرة أخشى أني أنا من يحسدك، عندما رأيتك الآن تذكرت أنك منذ أربع سنوات ومن قبلها أيضًا كنتِ تبحثين عن الإنسانية والسلام، لذا ضمّي هذه الرسالة معك: «يجب على كل شخص في مجاله أن يلقّب نفسه بشيء ممزوج بأهدافه السامية وأهدافه العملية ودمجهم بهذا الشكل، كي نتذكر دائمًا لمَ نحن هنا، وأيضًا نحو التقدم بانطلاق، أما عن لقبك الذي اخترتُه لكِ اليوم فهو: (فوزٌ حاملةُ السلام)، وهذه هي هديتي في تلك المناسبة، أرجو أن تعجبك».

فايزة: إنه مميز جدًا، لا أعلم كيف أعبّر لك عن فرحتي به، لكن أشكر الله لأننا التقينا.

مريم: هيّا اذهبي، وانطلقي، وانشري السلام.

انتهت المكالمة بين فايزة ومريم، وبعد قليل، وصلت فايزة وسلوى إلى المستشفى الخاصة التي كانت تعمل فيها.

نعم، إنها لم تهرب، بل حصلت فيها على منصب مديرة قسم الجراحة، والتجميل، والحروق بصعوبة بعدما أصبحت ابنة المسجون.

تفاجأت بوجود ازدحام كبير أمام المستشفى، ثم تساءلت: ماذا يحدث هنا؟

الدكتورة زينب: يبدو أن الصحافة تستهدفك.

مدير المستشفى: لا أريد أي تشويش على المرضى، عمَّ اجتماع اليوم ولماذا؟ صحيح، نسيت أنك ابنة المسجون، كان يجب طردك حينها.

-لا تصرخ عليها، أنا من جلبتهم إلى هنا.

فايزة: أبي!

ثم نظرت إلى سلوى، وعلمت لمَ اقترحت موعد الاجتماع ولمَ أصرّت على مجيئها اليوم، فإنه يوم تحرير والديها وأخيها، نعم فالأم والابن لم يستطيعا الهرب، لكن الأم قُتلت بسبب عنادها وعدم تسليم نفسها، أما الابن فقد ضعف واعترف بكل شيء وتحاكم هو ووالده مع تخليهم عن أموالهم الخاصة واستردادها للمبادرة، ودفْعُ مصاريف ديون البنك قد خففّ حكمهم.

فايزة: أبي، لِمَ لم تخبرني لأذهب إليكم، هيّا نذهب إلى البيت.

مالك: نعم، هيّا بنا، فأنا أتضوّر جوعًا.

الصياد: لا، اجتماع أختك مهم ويجب بدؤه في الحال.

أعلم ما ستقولين يا ابنتي، ومع هذا فأنا أريد سماعه منك كونك طبيبة عائلة الصياد، أتسمحين لي بحضوره؟

فايزة: نعم بالطبع ولكن...

ثم نظرت إلى المدير كي تطلب منه.

مدير المستشفى: بما أنه قد حل الأمر فلا مشكلة لدي، وأعتذر عما قلته، كنت فقط قلق على المرضى.

تفضلوا، حمدًا لله على سلامتك سيدي. زينب، هيّا قومي باللازم.

زينب: حسنًا سيدي.

بعد إذنكم، مصوّر واحد فقط وثلاثة صحفيين هم من سيدخلون، والبقية سينتظرون هنا.

فايزة: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، إليكم أيها السادة الأطباء والطبيبات، أحيّيكم من قسم الجراحة والتجميل والحروق، أنا الطبيبة فايزة الصياد، عليَّ اليوم أن أذكّركم بالشيء الذي بدأناه منذ أربع سنوات، ثم استكمال رحلة تطويرنا، لكني سأعيده مرة أخرى.

يا سادة، هناك فرق بين تطييب الآلام من الحروق وضمادها والتّكبر على النعمة، فمن يأتون دون أي حادث أو سبب ضروريّ ويطلبون منّا عمليات حقن لتجميلهم وكأننا الخالقون، أذكرهم بأقوال الله تعالى في كتابه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ...﴾.

معنى شددنا أسرهم، أي أحكمنا خلقهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

أريد قول إن كوننا أطباء يجب أن نكون أملًا للمرضى الحقيقيين، ونصمد معهم، ونصبر لمعالجتهم في كافة المراحل.

لكننا لسنا مع التغيير الجذري من غير ضرورة، فقط للتزين والتلاعب بجسد قد خُلق بحكمة وفي أحسن صورة!

صدر هذا القرار منذ أربعة أعوام وبفضل الله في هذا المستشفى الخاص مستمرون، وأشكر مديري على موافقته والأطباء لتطبيقه، والجديد اليوم أننا سننطلق ببدء انتشار تلك الحملة علنًا، وقبل أن أنوّه أنها تحت مسئوليتي الكاملة، فهي أيضًا مسئولية كل طبيب مسلم، سيسأل يوم العرض عن عمره فيما أفناه.

هل ساعدته بتشجيعك له من قصّ وشدّ للأنسجة، أم حاولت نصحه وإنقاذه من جريمة نقص في حق نفسه؟! يجب عليهم أن يغيّروا نظرتهم العقلية الناقصة تلك بزيادة الثقة بالنفس، وأن الجمال يكمن في داخل أرواحنا، وبابتسامة طفيفة يبدأ علاجنا.

أيًّا كانت الجهات التي ستكون مرحّبة بهذا القرار، هذا يعني انتصار جديد لدينك وللأمة ولأنفسنا لئلا نركّز على المظاهر فقط، بل هناك سُبل جادّة وأهم من هذا لنفعله، انتهيت.

إن كان لأحدكم أي أسئلة فليتفضل، وقبل هذا سأترك لكم آخر رسالة من صديقتي وأختي الحبيبة التي بفضل الله ثم بفضلها صدر مني هذا القرار.

ثم قالت رسالة مريم.

انتهت فايزة من كلمتها والمناقشات في الاجتماع، وأصبح كل الحاضرين خارج المستشفى.

الصياد: اسمحوا لي بكلمة الآن.

أحد الصحفيين: نعم تفضّل، نحن نريد أن نعلم عن خططك القادمة يا سيد.

الصياد: قبل أن أتحدث عن أعمالي، جميعكم قد سمعتم حديث ابنتي فايزة منذ قليل، فأريد شكرها أمامكم أولًا على صمودها رغم ما حدث من المعاناة خلال هذه السنوات التي مضت، وثانيًا أود أن أعتذر لكل الحالات ومسئولي مبادرة الصياد على خطأ أُصلح بخطأ أكبر تحت بند الصواب، لكن بلطف الله قد عدنا لرشدنا وتم تعويض الجميع، وستُطوَّر هذه المبادرة وننفذ ما تعاهدنا إليه سابقًا، وأيضًا ستُنشأ فروع كثيرة في هذه المبادرة في مختلف المحافظات خلال الفترة القادمة. أما عن مهنتي في البنك، فقد استغنيت عنها بكل إشكاليتها، وأرجو أن تتقبلوا اعتذاري، وأعتذر أيضًا بالنيابة عن ابني.

مالك: لا أعلم ما أقول، لكني أعتذر، وشكرًا لكم جميعًا.

أحد الصحفيين مشيرًا إلى مالك: ماذا تودّ أن تفعل في الأيام القادمة؟ هل ستعود إلى العمل في المبادرة؟

قبل أن يجيب عليه بالنفي تحدثت فايزة قائلة: بالتأكيد، فلا مانع للمُخطئ بالهروب أو الانعزال، بل يبذل ثمار طرحه بكل طيب نفس.

نعم، كلنا سنعمل معًا بكل جهدٍ وصدق، ولكن أولًا نعزم النية ونقدم المشيئة لله عزَّ وجلَّ، عائلة الصياد اليوم مرفوعة الرأس وشامخة، وطريقها متجه نحو عودة سلام حتى وإن كنا سنبدأ من الصفر، فالأهم أن ضميرنا موجّه بالفعل إلى الصواب.

النهـــــاية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣)﴾.

أولى الآيات التي أنزلها الله على رسولنا الكريم ﷺ هي القراءة، فبالقراءة تُبنى العقول والأفراد والمجتمعات، وهنا في (سُبُل) -وهو أولى خطواتنا نحو الأمل والنجاح- حاولنا من خلال الكتابة، والقراءة، والخط العربي، والرسم كلهم معًا إيصالك إلى أعلى مستوى من التشويق والمتعة، لمعرفة بعض الخبايا وإيضاح الفارق بين بعض ما أحلّه الله وما حرّمه، حاولنا جاهدين توجيهك -وأنفسنا- إلى كل ما ينبغي على كل إنسان عاقل واعٍ التوجه إليه من متطلبات الدنيا والدين.

نرجو هنا في نهاية (سُبُل) وبعد زيارتك لكل خبايا قصصها أن تكون قد أدركت المعنى الحقيقي للسُبل المختلفة، وأن تحاول العودة إلى الله في كل شيء مهما بدى لك صغيرًا، فالله هو الموفِّق في كل شيء، والخلط بين الحلال والحرام كثير.

كتابنا ليس دينيًّا، ولا ندَّعي المثالية، بل نحن هنا كي نُجاهد معًا نحو ما أحلّه الله، وكل أمر يختلط علينا نوصّله إليكم قدر الاستطاعة للتوضيح بين الصواب والخطأ. لسنا أنبياء ولا صحابة ولا دعاة، بل نحن فقط فريق اجتمع على الحبِّ في الله، حبِّ بعضنا في الله، وحبِّ الله والدين، أردنا فقط أن نوصّل رسالتنا بالطريقة التي نُحب عبر كل فريق وعضو من مكاننا المحبوب الذي يجمع شملنا جميعًا.

وفي نهاية الطريق أودّ أن أُذَكِّر نفسي وإياكم أن السُبُل لن تنتهي هنا، وأننا لم نُحط علمًا بكل شيء، بل حاولنا جاهدين أن نكون مُلمين بأغلب مآزق الحياة وننقلها لكم، لعلّنا نجد لها حلولًا نُقدِم عليها.

رغم ما تعلّمناه، فإننا سنتعثّر مرة أخرى، سواء في نفس السبيل أم في سُبلٍ أخرى، لكننا يجب أن نتعلم ونأخذ حذرنا في كل خطواتنا ونتقي الله، نتقي الشُبهات، نراعي أنفسنا ومن حولنا في كل شيء، لعلّنا نكون سببًا في هداية أنفسنا والآخرين يومًا ما.

الـــفـــهرس

- عن الروّاد..... ٣
- المقدمة..... ٤
- بصمة قلم للخطاطة: ياسمين رامي..... ٥
- فرشاة أمل للرسامة: فرحة محمد ٦
- نُقْطَةُ انْطِلَاقٍ للكاتبة: هالة محمود ٧
- بصمة قلم للخطاطة: حبيبة محمد ١٧
- فرشاة أمل للرسامة: حبيبة سيد..... ١٨
- غِيَابُهُ ظَلَامٌ للكاتبة: لوجينا صلاح ١٩
- بصمة قلم للخطاطة: حبيبة محمد ٢٣
- فرشاة أمل للرسامة: خديجة اسكندر..... ٢٤
- مُسْتَقْبَلٌ حُرٌّ للكاتبة: روان محمد ٢٥
- بصمة قلم للخطاطة: ندى عامر ٣٠
- فرشاة أمل للرسامة: سارة عصام..... ٣١
- صِدْقُ الكِفَاحِ للكاتبة: حور الليالي..... ٣٢
- بصمة قلم للخطاطة: مودة عادل ٤٦
- فرشاة أمل للرسامة: فرحة محمد ٤٧
- الانْحِيَازُ الذَّاتِيُّ للكاتبة: شذى أشرف ٤٨
- بصمة قلم للخطاطة: ندى عامر ٥٥
- فرشاة أمل للرسامة: منة الله جابر ٥٦
- الانْحِدَارُ الذَّاتِيُّ للكاتبة: إسراء فتحي..... ٥٧
- بصمة قلم للخطاطة: حبيبة محمد ٧٠

- فرشاة أمل للرسامة: خديجة اسكندر ٧١
- لَمْ يَفُتْ.. فَهُنَاكَ مُتَّسَعٌ للكاتبة: مروة سيد ٧٢
- بصمة قلم للخطاطة: ندى عامر ٧٩
- فرشاة أمل للرسامة: منة الله جابر ٨٠
- مُرَاوَغَةُ الإنْصَاتِ للكاتبة: إسراء علي ٨١
- بصمة قلم للخطاطة: ياسمين رامي ٩٢
- فرشاة أمل للرسامة: سارة عصام ٩٣
- فِي دَارِ الكُتُبِ للكاتبة: فاطمة عادل ٩٤
- بصمة قلم للخطاطة: ياسمين رامي ١٠٥
- فرشاة أمل للرسامة: سارة عصام ١٠٦
- عَوْدَةُ سَلَامٍ للكاتبة: إسراء فتحي ١٠٧
- النهاية ١٢٦